

رواية

أنا الحسين بن علي

معروف عبد المجيد

رواية

أنا الحسين بن علي



معروف عبدالمجيد

بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم

مقدمة المؤلف

ليست قضية الإمام الحسين (عليه السّلام) حكاية تُحكى، ولاقصة تُقصّ، ولارواية تُروى.. وإنما هي مأساة تُعاش، وملحمة تُحسّ بكل ما فيها من معانٍ ومالها من أبعاد..

ولقد حاول البعض أن يدلوا بدلوهم، تاريخاً، وروايةً، وتحليلاً، واستذكاراً للفاجعة فيما يعرف بالمقتل.

فأما التاريخ.. فتحكمت فيه ميول الكَتَبَة..!

وأما الرواية.. فقد حاول فيها من هم ليسوا أهلا لها، فزيّفوا التاريخ، وأحدثوا من الدّس ما تنبوا عنه الوقائع والحقائق، واختلقوا الشخصيات وهو ما يأباه الأدب التاريخي، وجعلوا من الحب المزيف والعاطفة المفتعلة إطاراً يلمحون في بعض أركانه بقضَية الامام الحسين

(عليه السّلام)، وهو ما تترفّع عنه عظمة الشخصية الحسينية، وتسحقه جسامة هذه المأساة المروعة التي لم يشهد التاريخ البشري شبيهاً لها أو مثيلاً..!

وأما التحليل.. فهو ما تتعب منه العقول والأذهان، ومالايصبر عليه كل قاريء..

وأما المقتل.. فهو وإن أثار المشاعر، واستدر الدموع، فانه يبقى انعكاسا لجانب واحد من جوانب القضية ـ الفاجعة..!

وبقي الأدب الروائي الجامع لموازين وأصول العمل الفني بما في ذلك الأمانة التاريخية، والمنحى التسجيلي، والإلمام بالوقائع، والتصوير الفني، وعنصر التشويق، والحبكة القصصية، بعيداً عن اقتحام الحدث، وإقحامه، واختلاق المواقف، والمساس بالحقائق وواقع الشخصيات.

ومن ثمّ جاءت رواية «أنا الحسين بن علي» لتكون دحضا للإفتراءات، ورداً على التساؤلات، وردعاً للتقوّلات، وتأسيساً لأدب روائي تاريخي إسلامي، وفاتحة للمواهب الاسلامية الخلاقة، والطاقات الابداعية المخلصة، وجوهرة في العقد الرسالي المتلألىء الذي لايخبو بريقه ولاينفرط نظمه.

وإنني إذ أبغي بهذه الرواية وجه الحق سبحانه وتعالى، طمعاً في شفاعة الرسول الأكرم محمّد (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، وعترته المعصومين ولاسيّما قتيل كربلاء الحسين (عليه السّلام)، فإني أتقدم لكل من أعانوني على انجازها بالشكر والتقدير، وأسأل اللّه العليّ

القدير أن يشملهم بفضله وعنايته جزاء ما قدموا لآل البيت الأطهار(عليهم السّلام)، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

م٠ع

١

كان يزيد بن معاوية جالساً على سرير فوقه غطاء من الديباج المزركش تتناثر عليه الطنافس الملونة في أحد قصور الأمويين في مدينة «حوارين» الواقعة شمال دمشق، بين حمص وتدمر، والتي كان يسكنها بقايا من النصارى الآراميين، وتمتاز بخرائبها وآثارها القديمة ومرابعها الواسعة التي كان غالبا ما يتردد عليها يزيد للصيد والقنص.

وكان يزيد متكئاً برأسه على صدر جارية رومية تمسح على شعره، وتلاطفه، وقد خلعت عنه عمامته الصغيرة، وبين يديه طنبور يلعب عليه ويداعب أوتاره، بينما قينة خمرية اللون بثياب خفيفة تُردّد أبياتاً من شعر المجون بصوت شجي مغناج أطرَبَ يزيد، فراح يجاريها في الغناء بصوت متهتّك وقد لعبت الخمر برأسه، وبين فينة وأخرى يلاطف قرده الأثير «أبا قبيس» الذي أخذ يقفز في حجره وعلى كتفيه بحلته الحريرية الصفراء، بينما ينبعث من رقبته وأطرافه رنين الأطواق

والأساور الذهبية، فيختلط برنات الموسيقى ونغمات الغناء المنسابة في تلك القاعة الغارقة في رائحة الطيب ونشوة الأجواء الساحرة.

وكانت أمام يزيد مائدة ممدودة وعليها صحاف الفاكهة، وأباريق الخمور المختلفة الألوان المستخرجة من البلح والعنب والتفاح، وقد تناثرت الدِّنان، فتمتد إليها يد الغانية الرومية لتسقي يزيد وتطعمه، وهو غارق في بحر اللذة العارمة.

وكان على باب القاعة اثنان من الخصيان يرتديان سراويل قصيرة زاهية الألوان بين أحمر وأصفر وأزرق، يتأبّطان الحراب، وتلتمع في خصريهما الخناجر.

وبينما يزيد على هذه الحال من القصف والعربدة شق فارسان طريقهما بين الأعمدة الصقيلة التي تزين الممر الرئيسي في القصر إلى قاعة يزيد.

فلما اجتازا النافورة المستديرة التي كانت تتكسر على جوانبها المياه، واقتربا من القاعة، رفع الخصيان حربتيهما في شكل متقاطع أمام الباب، وتأهّبا لاستقبال القادمين.

وتقدم فارس ملثم طويل القامة من أحدهما وهو يحمل قرطاساً قبض عليه بعناية، وأسرّ له قولا.

فدخل الخصي إلى يزيد، وقال له:

ـ لقد أتاك بريد من دمشق يامولاي، وهو يطلب الدخول.

فنهره يزيد بصوت مخمور، قائلاً:

ـ إليك عني ياهذا، وأخبره أن ينتظر حتى الصباح.
فرجع الخصي إلى الفارس، ونقل إليه قول يزيد.
فقال له الفارس بلهجة جادّة وحاسمة:
أخبر الأمير أن الأمريتعلق بالخلافة، وليس من سَبيل لإرجائه حتى الصباح.
فدخل الخصي ثانية إلى يزيد، وأخبره بكلام الفارس.
فاعتدل يزيد في جلسته، وقال له:
ـ فليدخل.
فحَلّ الفارس لثامه، ودخل، وسلم على يزيد، ووقف بين يديه، وناوله القرطاس.
ففضّه يزيد، وقرأه.
وكان كتاباً من الضحّاك بن قيس رئيس الشرطة، يعزيه بأبيه معاوية بن أبي سفيان، ويحثّه على الإسراع في القدوم حتى يُجدِّد أخذ البيعة.
وكان معاوية قُبَيلَ مرضه الذي مات فيه قد أخذ البيعة ليزيد على كرهٍ من الناس بحيلةٍ له مع جماعة من الذين يتشيعون لبني أمية، ومنهم المغيرة بن شعبة، والضحاك بن قيس الفهري، وعمرو بن سعيد بن العاص الملقّب بالأشدق، ويزيد بن المقنّع العذري، بينما امتنع عنها نَفَرٌ في المدينة المنورة.
فلما علم يزيد بموت أبيه، حزم أمره، وتَعجَّل يطلب دمشق.

فوصلها بعد ثلاثة أيام من دفن معاوية.

٢

وكان الضَّحَّاك بن قيس قد خرج لاستقبال يزيد على مشارف دمشق في جمع من الناس.

فتقدَّمهم يزيد في طريقه إلى دار الخلافة.

فلحق به الضحاك، وأشار عليه بالذهاب أوَّلاً إلى قبر أبيه.

فنزل على رأيه، وذهب إلى القبر، وألقى عليه نظرةً، ثم انثنى إلى المسجد، وارتقى المنبر، وخطب في الناس، فقال:

«أيها الناس، لقد كان معاوية عبداً من عبيد اللّه، ثم قبضه الله إليه، ولاأزكيه على اللّه (عزّوجلّ) فانه أعلم به، إن عفا عنه فبرحمته، وإن عاقبه فبذنبه، وقد وليت الأمر من بعده، ولست آسى على طلب ولاأعتذر من تفريط، وإذا أراد اللّه شيئاً كان. ولقد كان معاوية يغزو بكم في البحر، وإني لست حاملاً أحداً من المسلمين في البحر، وكان يُشَتّيكُم بأرض الروم، ولست مُشَتِّياً أحداً بأرض الروم، وكان يُخرِج عطاءَكم أثلاثاً، وأنا أجمعه كله لكم».

وكان يزيد بذلك يمنيهم بالراحة والسلامة والثراء، بينما هو قد طوى جوانحه على إعدادهم للمواجهة المرتقبة التي كان قد عقد العزم عليها ووطَّدَ نفسه على خوضها في الداخل.

فلما أنهى يزيد خطبته، لم يتقدم أحد لتعزيته، ولم يمد له الحاضرون يدا.

فأسقط في يده..!

ولكنه تماسك وأخفى حنقه، وظل رابط الجأش، إلى أن قام رجل اسمه عبداللّه بن همام السلولي، فقال:

ـ يا أمير المؤمنين، آجرك اللّه على الرزيّة، وبارك لك في العطيّة، وأعانك على الرعيّة.

فتبعه رجل من ثقيف..

وآخر.. وآخر..

ثم أخذ الناس يُعزّونه بموت أبيه، ويهنئونه بالخلافة.

فما لبث يزيد أن أقبل عليهم رغبةً في التلميح إلى ما هو مُقدِمٌ عليه، ليستشِفّ ما تنطوي عليه نفوسهم، فقال:

ـ أبشروا يا أهل الشام، فان الخير لم يزل فيكم، وستكون ملحمةٌ بيني وبين أهل العراق، فمنذ ثلاث ليال رأيت في منامي كأن نهراً يجري بالدم جرياً شديداً بيني وبين أهل العراق، فجعلت أجهد نفسي لأجوزه، حتى جازه بين يديّ عبيداللّه بن زياد، وأنا أنظر إليه ولم أقدر..!

فصاح أهل الشام:

ـ امض بنا حيث شئت يا أمير المؤمنين، فان معك سيوفنا وقلوبنا.

فأجزل يزيد لهم العطاء، وبعثر فيهم الأموال.

وخرج إلى دار الخلافة.

واستتبَّ الأمر ليزيد بن معاوية في دمشق، وتربّع على الأريكة، وقبض على صولجان الخلافة.

ولم يكن يعكِّرُ صفوه إلاّ بيعة النفر الذين أبوا على معاوية البيعة ليزيد.

٣

ودقّ ثلاثة رجال باب الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وكان والياً على المدينة، فأذن لهم بالدخول، وأكرم وفادتهم.

فلما سألهم الوليد عما وراءهم، ناوله أحدهم كتابين.

ففتح الأول، وقرأه.

وكان فيه نعي معاوية.

ثم فضّ الكتاب الثاني، فوجد فيه:

«أما بعد، فخذ حسيناً، وعبداللّه بن عمر، وابن الزبير، بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا، فان امتنعوا فاضرب أعناقهم وابعث إليّ برؤوسهم، وخذ الناس بالبيعة، فمن امتنع فأنفذ فيه الحكم».

ففُظع الوليد بموت معاوية، وكبُر عليه..

فصرف رسل يزيد، وأرسل خلف مروان بن الحكم يدعوه للمجيء.

وكان مروان بن الحكم والياً على المدينة قبل الوليد، فلما عُزل، ووليَها

الوليد، كان مروان يختلف إليه متكارهاً.

فلما رأى الوليد منه ذلك شتمه عند جلسائه، فبلغ ذلك مروان، فانقطع عنه، وخاصمه.

وعندما قدم مروان، قرأ عليه الوليد الكتابين، فاسترجع، وترحم على معاوية.

فسأله الوليد المشورة والرأي.

فقال له مروان:

ـ أرى أن تدعوهم الساعة، وتأمرهم بالبيعة، فان فعلوا قَبِلتَ منهم وكفَفتَ عنهم، وإن أبوا ضربتَ أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإنهم إن علموا بموته وثب كل رجل منهم بناحية وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا الناس إلى نفسه، إلا ابن عمر، فانه لايرى الولاية والقتال إلا أن يدفع عن نفسه أو يُدفع إليه هذا الأمر عفوا.

وكان الليل قد انتصف.

فبعث الوليد رسوله عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان غلاماً حدثاً، إلى الحسين (عليه السّلام) وابن الزبير يدعوهما إليه.

فوجدهما في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم).

فقال لهما:

ـ أجيبا الأمير.

فأجابه الحسين (عليه السّلام) قائلاً:

ـ انصرف، الآن نأتيه.

ولما كان ذلك في ساعة لايجلس الوليد فيها للناس، ارتاب ابن الزبير وسأل الحسين (عليه السّلام): ـ تُرى لماذا بعث إلينا في هذه الساعة التي ليس له عادة بالجلوس فيها إلا لأمر..؟!

فأجابه الحسين (عليه السّلام):

ـ أظن أن طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر.

.... وكان الحسين (عليه السّلام) قد رأى في المنام أن النيران تشتعل في دار معاوية وأن منبره منكوس.. فتيقن هلاك معاوية....

فقال له ابن الزبير:

ـ هو ذاك، فماذا تريد أن تصنع..؟

فرد الحسين (عليه السّلام):

ـ أجمع فتياني الساعة، ثم أمشي إليه، وأجلسهم على الباب، وأدخل عليه.

فدهش ابن الزبير، وقال:

ـ ولكني أخافه عليك إذا دخلت..!

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ لآتيه إلا وأنا قادر على الامتناع.

وانصرف إلى داره.

٤

جمع الحسين (عليه السّلام) ثلاثين رجلا من أهل بيته وشيعته، وقال لهم:

ـ احملوا السلاح، وتجهزوا للخروج.

فقالوا:

ـ سمعا وطاعة، وإننا نرجوا اللّه ألا تكون قد جمعتنا إلا على خير.

فقال:

ـ إن الوليد قد استدعاني في هذا الوقت من الليل، ولست آمن أن يكلفني أمراً لاأجيبه إليه، وهو غير مأمون.

قالوا:

ـ آمنك اللّه يا أبا عبداللّه، وإنّا واللّه لما نعوه عنك إن تجرّأ وأقدم على أمر يسوءك.

فاستطرد الحسين (عليه السّلام):

ـ فكونوا معي، فاذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب، فاذا سمعتم صوتي قد علا أو دعوتكم فادخلوا بأجمعكم، وإلاّ فلاتبرحوا حتى أخرج إليكم.

فأجابوه:

ـ حاشا للّه أن يمكنه منك، فسر على بركة اللّه ونحن حولك.

ومضى الحسين (عليه السّلام) وفي يده قضيب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، حتى أتى دار الوليد بن عتبة، فاستأذن بالدخول، وترك فتيانه لدى الباب.

فلما وجد الحسين (عليه السّلام) مروان بن الحكم عند الوليد في داره، وكان يعلم ما بينهما، فانه سلم عليهما، وبادرهما بالقول:

ـ الصلة خيرٌ من القطيعة، والصّلح خيرٌ من الفساد، وقد آن لكما أن تجتمعا، أصلح اللّه ذات بينكما.

فلم يجيباه بشيء..!

ولما استقر المجلس بالحسين (عليه السّلام)، نعى إليه الوليد معاوية.

فقال (عليه السّلام):

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون، ولاحول ولاقوة إلاّ باللّه.

فأطلعه الوليد على الكتاب، ثم عرض عليه البيعة ليزيد.

فأطرق الحسين (عليه السّلام)، ثم قال له:

ـ إني أراك لاتقتنع ببيعتي سرّاً، ولاأراك تجتزىء بها مني سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية.

فقال الوليد:

ـ أجل.

فقال الحسين (عليه السّلام):

ـ فاذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً، وهو أحب إليكم.

فأجابه الوليد:

ـ فانصرِف في دعة اللّه، حتى تأتينا مع الناس. فتدخّل مروان، وقال للوليد:

ـ واللّه لئن فارقك الساعة ولم يبايع لاقدرت عليه أبدا حتى تكثر القتلى بينكما، فاحبسه عندك حتى يبايع، وإلا ضربتَ عنقه..!

فنهض الحسين (عليه السّلام)، وقال لمروان:

ـ هو يقتلني أو أنت؟! كذبتَ واللّه وأثمت..!

ثم قال موجهاً كلامه إلى الوليد:

ـ إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلَف الملائكة، بنا فتح اللّه وبنا ختم.

فقال الوليد:

ـ وماذا بشأن يزيد؟

فأجابه الحسين (عليه السّلام):

ـ إن يزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لايبايع مثله..!

فسأله الوليد:

ـ أفلن تأتينا مع الجماعة؟

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيُّنا أحق بالخلافة والبيعة..!

ثم خرج (عليه السّلام)، حتى أتى منزله.

فلما ذهب الحسين (عليه السّلام)، قال مروان للوليد لائماً:
ـ عصيتني..؟! واللّه لايُمَكِّنُكَ من نفسه بمثلها أبدا..!
فقال الوليد:
ـ ويحك يامروان! لقد أشرت عليّ بذهاب ديني ودنياي! أقتل حسيناً إن قال لاأبايع؟! واللّه ما أحبُ أنَّ لي ماطلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأني قتلت حسينا..!
فقال مروان وهو غير حامد له على رأيه:
ـ قد أصبت! ولكنك بذلك ستغضب يزيد، وتوغر صدره عليك..!
فأجابه الوليد:
ـ إني أخاف غضب اللّه، وإني لأظن أنّ امرأً يُحاسَبُ بدم الحسين لخفيف الميزان يوم القيامة، ولاينظر اللّه إليه ولايزكيه وله عذاب أليم.فانصرف مروان وهو يقول:
ـ فاذا كان هذا رأيك فانظر كيف ستكون العاقبة..!

٥

وفي تلك الليلة توجه الحسين (عليه السّلام) إلى قبر جده رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم.
فما صار بجانبه رأى نوراً يسطع له من القبر. فقال: ـ السلام عليك يارسول اللّه. أنا الحسين بن فاطمة، فرخك وابن فرختك، وسبطك

الذي خلفتني في أمتك، فاشهد عليهم يانبيّ اللّه، فانهم قد خذلوني ولم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتى ألقاك..!

ثم صفّ الحسين (عليه السّلام) قدميه، ولم يزل راكعاً ساجداً حتى الصباح.

فما ودَّعَ جده (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) وسار إلى منزله، قابله مروان بن الحكم، فاستوقفه، وقال:

ـ لقد ادخرت لك النصيحة ياحسين! بايع يزيد، فان في ذلك خير الدنيا والآخرة..!

فقال الحسين (عليه السّلام):

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون. على الإسلام العفاء إذا بُليَت الأمة براعٍ مثل يزيد..!

فقاطعه مروان:

ـ إذن مازلت على إصرارك..! أفلن تبايع يزيد بالخلافة..؟

فأجابه مستنكرا:

ـ أبايع يزيد..؟! لقد سمعتُ جدي رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان، فاذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه..!

ثم تابع الحسين (عليه السّلام):

ـ وقد رآه أهل المدينة على المنبر فتركوه، حتى ابتلاهم اللّه بيزيد..!

فانصرف مروان غاضباً..!

وفي الليلة التالية عاد الحسين (عليه السّلام) إلى قبر جده (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) وقامِ يصلي.
ثم توجه إلى اللّه بالدعاء، وقال:
ـ اللهم إن هذا قبر نبيك محمد (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت. اللهم إني أحب المعروف وأنكر المنكر، فأسألك ياذا الجلال والإكرام بحق القبر ومن فيه إلا اخترت لي ما هو لك رضاً ولرسولك رضا.
ثم انكفأ على القبر الشريف وأخذ يبكي بدموع منهمرة على ما آل إليه أمر تلك الشرذمة من المسلمين بسبب تخلفهم عن دعوة رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) وعدم امتثالهم لأمره، وتكالبهم على اغتصاب الخلافة والتسلط على ما ليس لهم، وهو يتذكر ما كان منهم مع أبيه وأخيه.
وكان قبر الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) يسطع في هالة من النور تغمر ما بين الأرض والسماء، والمدينة المنورة ساكنة في هدوء الليل الساجي، بينما أخذ الناس يتناقلون الأخبار ويفكرون فيما ستؤول إليه الأمور. وما سينجلي عنه الغد المجهول.
ووضع الحسين (عليه السّلام) رأسه على قبر جده، وغفا. فرأى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) قد أقبل في كتيبةٍ من الملائكة، فضم الحسين (عليه السّلام) إلى صدره، وقبّل ما بين عينيه، وقال:
ـ حبيبي ياحسين..! كأني أراك عن قريب مرّملاً بدمائك مذبوحاً

بأرض كربلاء بين عصابة من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لاتُسقى وظمآن لاتُروى، وهم بعد ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة..!

حبيبي ياحسين..! إن أباك وأمك وأخاك قدموا عليّ وهم مشتاقون إليك، وإن لك في الجنة لدرجات لاتنالها إلا بالشهادة..!

فبكى الحسين (عليه السّلام) في الرؤيا، ونظر إلى جده، وقال:

- لاحاجة بي إلى الدنيا، فخذني إليك وأدخلني معك في قبرك..!

فقال له الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلّم):

- بل ترجع إلى الدنيا فتُرزق الشهادة وما قد كتب اللّه لك فيها من الثواب العظيم، فانك وأباك وأخاك وعمك وعم أبيك تحشرون في زمرة واحدة يوم القيامة حتى تدخلوا الجنة..!

وانتبه الحسين (عليه السّلام) من غفوته قرب الصباح، فعاد إلى داره، وقصّ رؤياه على أهل بيته، فحزنوا حزناً شديداً، وانخرطوا في بكاء مرير، وأصبحوا في ذلك اليوم وليس من أحد أشد منهم غمّاً وألماً فيما بين المشرق والمغرب، بينما الحسين (عليه السّلام) قد عقد العزم على الخروج من المدينة.

٦

وعلم الوليد بعزم الحسين (عليه السّلام) على الخروج من المدينة، فعبث إليه رجاله يستحثه على الحضور وإنجاز البيعة.

فقال لهم الحسين (عليه السّلام):

ـ أصبحوا ثم ترون ونرى.

فكف عنه الوليد لأنه لم يكن يريد الابتلاء به، وتشاغل عنه بأمر ابن الزبير وابن عمر.

فما كان من يزيد إلا أن عزله عن المدينة، واستعمل عليها عمرو بن سعيد بن العاص بعد مضى أيام قليلة.

ولم يكن محمد بن الحنفية يدرى إلى أين سيتوجه أخوه الحسين (عليه السّلام). فأتى إليه، وقال له:

ـ يا أخي.. أنت أحب الناس إليّ وأعزّهم عليّ، ولست أدّخر النصيحة لأحد من الخلق إلا لك، وأنت أحق بها لأنك مزاج مائي ونفسي وروحي وبصري وكبير أهل بيتي ومن وجبت طاعته في عنقي، لأن اللّه قد شرفك عليّ وجعلك من سادات أهل الجنة، فتنحَّ ببيعتك عن يزيد وعن الأمصار مااستطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك، فان بايعك الناس وبايعوا لك حمدت اللّه على ذلك، وإن اجتمعوا على غيرك لم ينقص اللّه بذلك دينك ولاعقلك ولم تذهب به مروءتك ولافضلك، فاني أخاف عليك أن تدخل مصراً من هذه الأمصار فيختلف الناس بينهم، فتكون طائفة معك وأخرى عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنّة غرضاً، وإذا بخير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيعها دماً وأذلها أهلاً..!

فسأله الحسين (عليه السّلام) متعجباً:

ـ فأين أذهب يا أخي..؟!

فقال محمد:

ـ تخرج إلى مكة، فان اطمأنت بك الدار، وإلا لحقت بالرمال وشعب الجبال، وخرجت من بلد إلى آخر حتى تنظر ما يصير إليه أمر الناس ويحكم اللّه بيننا وبين القوم الفاسقين.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ يا أخي واللّه لو لم يكن في الدنيا ملجأ ولامأوى لما بايعت يزيد بن معاوية فهو من تعرف.

فسأله محمد:

ـ فما حداك على الخروج عاجلاً..؟

فأجابه:

ـ أتاني جدي فقال: اخرج ياحسين فقد شاء اللّه أن يراك قتيلا..!

فقال ابن الحنفية:

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون.

ثم بكى، وبكى معه الحسين (عليه السّلام)، وقال:

ـ جزاك اللّه خيراً يا أخي، فقد نصحت وأشفقت، وأنا عازم على الخروج إلى مكه، وقد تهيأت لذلك أنا وأخوتي وبنو أخي وشيعتي، أمرهم أمري ورأيهم رأيي، وأماأنت يا أخي فلاعليك أن تقيم بالمدينة فتبعث إليّ بالأخبار ولاتخفى عني شيئاً.

فقال محمد:

ـ كما تحب وترضى يا أخي. ولكن ما معنى حملك هؤلاء النساء معك وأنت تخرج على مثل هذه الحال..؟!

فأجابه:

ـ قال لي جدي: شاء اللّه أن يراهنّ سبايا..!

ثم قام الحسين (عليه السّلام)، وأتى بدَواةٍ وقرطاس، وكتب الوصية الآتية:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا ما أوصى به الحسين بن علي بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية. إن الحسين يشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله جاء بالحق من عنده، وأن الجنة حق وأن النار حق والساعة آتية لاريب فيها، وأن اللّه يبعث من في القبور، وإني لم أخرج أشراً ولابطراً ولامفسداً ولاظالما، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي. أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي رسول اللّه وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فاللّه أولى بالحق، ومن رد عليَّ هذا أصبر حتى يقضي اللّه بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين. وهذه وصيتي إليك يا أخي، وماتوفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب».

ثم طوى الحسين (عليه السّلام) الكتاب، وختمه بخاتمه، ودفعه إلى أخيه محمد بن الحنفية.

٧

جلست أم سلمة زوج الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) في دارها بالمدينة، وقد عادت بها الذاكرة إلى الأيام الخوالي، عندما كان جبريل (عليه السّلام) ينزل بالوحي على رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) في هذه الدار، فتذكَّرَت حديث الكساء وآية التطهير، وتجسَّدَ أمامها الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) وعليّ وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السّلام) وما كانوا عليه في تلك الساعة، ثم ما كان من أمر فاطمة بعد رحيل أبيها، وما كان من أمر عليّ وابنه الحسن مع معاوية بن أبي سفيان، ثم ما هو كائن الآن من شأن الحسين (عليه السّلام) مع يزيد بن معاوية.

وبينما هي على هذه الحال، طرق الباب طائفٌ من الماضي، فقامت وفتحت، فوجدت أمامها شيخاً كهلاً تبدوا على وجهه أمارات الهيبة والوقار والزهادة.

فسلم عليها الرجل. فردت (عليه السّلام)، وقالت:

ـ من أنت؟

فقال:

ـ أنا ميثم التمّار.

قالت:

ـ والله لربما سمعت رسلو الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يذكُرُك في جوف الليل..!

فسألها:

ـ فأين الحسين..؟

فأجابت:

ـ هو في حائطٍ له ـ أي في بستانٍ له ـ ، وإنه ما زال يحدث بشأنك، ومازال يذكرك.

فقال ميثم:

ـ فاقرئيه مني السلام، وإننا ملتقون عند رب العالمين إن شاء اللّه تعالى.

فأتت أم سلمة بطيب، فطيب به لحيته، وقالت:

ـ أما إنها ستخضب بدم..!

فقال:

ـ في سبيل أهل البيت إن شاء اللّه.

ثم ودعها، وانصرف.

ووقفت أم سلمة تشيعه بدموعها.

ولم تنقض ساعة حتى غادرت أم سلمة دارها، ومضت إلى نساء بني عبدالمطلب. فوجدتهن قد أحطن بالحسين (عليه السّلام) وهن يبكين وينتحبن لخروجه من المدينة، وهو يهديء من لوعتهن، ويقول:

ـ أنشدكنّ اللّه أن تبدين هذا الأمر معصية للّه ولرسوله.

فقالت إحداهن:

- ولِمَ نَستَبقي النياحةَ والبكاءَ، وهو عندنا كاليوم الذي مات فيه رسول اللّه وعلي وفاطمة والحسن ورقية وزينب وأم كلثوم..؟!

فقال (عليه السّلام):

- إنا للّه وإنا إليه راجعون..!

وقالت أخرى:

- ننشدك اللّه، جعلنا اللّه فداك من الموت ياحبيب الأبرار من أهل القبور..!

فارتفع عويل النساء..!

فأخذ الحسين (عليه السّلام) يصبّرهن ويطيب خاطرهن، ويقول:

- لاحول ولاقوة إلاّ باللّه العلي العظيم، إنه أمر جارٍ وقضاءٌ محتوم.

عندئذ اقتربت أم سلمة من الحسين (عليه السّلام)، وقد انتحى جانباً، فقالت له:

- يابنيّ.. لاتحزن بخروجك إلى العراق، فاني سمعت جدك رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) يقول: يُقتل الحسين بأرض العراق بأرضٍ يقال لها كربلاء.

فقال الحسين (عليه السّلام):

- يا أماه.. وأنا أعلم أني مقتولٌ مذبوحٌ ظلماً وعدواناً، وقد شاء اللّه سبحانه أن يرى حرمي ورهطي مُشرَّدين وأطفالي مذبوحين مأسورين مقيدين وهم يستغيثون ولامن ناصر ينصرهم..!

فقالت أم سلمة:

ـ فَلِمَ تعجَّلتَ الذهاب وأنت مقتول..؟!

فأجاب:

ـ يا أماه، إن لم أذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد، وليس لي من هذا بُد..!

فبكت أم سلمة، وقالت:

ـ الأمر للّه..! لقد أعطاني جدك من تربتك في قارورة، وقال: إذا رأيتيها تفور دماً فتيقّني أن الحسين قُتل..!

فقال (عليه السّلام):

ـ ليس واللّه من الموت بد، وإنّي أعرف اليوم الذي أُقتل فيه، وأعرف من يقتلني، وأعرف البقعة التي أدفن فيها، وأعرف من يُقتل من أهل بيتي وقرابتي وشيعتي.

ونظر الحسين (عليه السّلام) إلى أم سلمة، فوجدها حائرة مندهشة، فقال لها:

ـ وإن أحببت يا أماه، أريك مضجعي ومكان أصحابي..!

فسألت:

ـ أيكون ذلك ياولدي..؟!

فأجاب:

ـ أجل.

فقالت:

ـ قد شئتُ واللّه.

فأشار الحسين (عليه السّلام) إلى ناحية كربلاء، وتكلم باسم اللّه الأعظم. فانخفضت الأرض، حتى أراها مضجعه ومدفنه وموضع عسكره وموقفه ومشهده ومضاجع أصحابه..!

فبكت أم سلمة بكاء الثكلى وهي تقول:

ـ واحسيناه..! واولداه..!

ثم أخذت تنظر مفجوعة إلى مضجعه في كربلاء.

فقبض الحسين (عليه السّلام) قبضة من تربته، وأعطاها إياها، وقال:

ـ اخلطيها بما كان عندك، فان رأيت القارورة تفور دما فتيقني قتلي ياأماه..!

فانتحبت أم سلمة، وسألت:

ـ ومتى يكون ذلك ياولدي ياحسين..؟

فقال (عليه السّلام):

ـ يكون ذلك في يوم عاشوراء، وهو اليوم العاشر من محرم، بعد صلاة الزوال. فعليك السلام ورضي اللّه عنك ياأماه برضانا عنك..!!

٨

ادلهمَّت السماء في تلك الليلة قبل الأخيرة من شهر رجب عام ستين للهجرة النبوية الشريفة، وغرقت المدينة في بحر من الظلمة الحالكة سوى أعمدة من النور ترتفع نحو عرش الملكوت من قبر

رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، وقبر ابنته فاطمة الزهراء (عليها السّلام)، وقبر ولدها الحسين (عليه السّلام)، ومن كل القبور الثاوية في بقيع الغرقد بما ضَمَّتهُ من أجداثٍ طاهرة لشهداء وأولياء وصديقين قضوا نحبهم في طاعة اللّه ورسوله.

وكانت أشجار الغرقد تضفى على تلك البقعة المباركة جلالاً قدسياً وكأنها أشجار المنتهى، بينما المدينة المنورة حانية على ذكريات الرسالة تسجل تلك اللحظات المؤلمة والحاسمة من تاريخ الاسلام الزاخر بالأحداث الجسيمة.

وخرج الحسين (عليه السّلام)، فودع جده وأماه وأخاه، وصافح أرواح البقيع الهائمة في إشراقات النور السرمدي، وألقى النظرة الأخيرة على تلك البقاع المضمَّخة بعبق العطر الرسالي الفواح وصمدية الأزلي الباقي.

ثم عاد إلى داره وجمع بنيه وأخوته وبني أخيه وأهل بيته الذين هم أمانة في عنقه، وأطلعهم على عزمه الخروج الساعة.

وخيّرهم بين البقاء وصحبته، فتشبثوا به وهم يبكون ويقولون:

- ولمن تتركنا بعدك يا أبا عبداللّه..؟!

فبكى (عليه السّلام) رأفةً بهم ورحمة، وجهزهم للرحيل، ثم سار وساروا معه.

وخرج الحسين (عليه السّلام) من المدينة المنورة تحت جنح الليل البهيم، وهو يقرأ قوله تعالى:

«فخرج منها خائفاً يترقب، قال رب نجني من القوم الظالمين» القصص: ٢١.
واتخذ طريقه نحو مكة المكرمة.
وسار الحسين (عليه السّلام) وقد لزم الطريق الأعظم. فتقدم أحد أهل بيته، وقال له:
ـ لو تنكَّبتَ الطريق حتى لايلحقك الطلب ويصل إليك رجال الوليد بن عتبة..!
فأجابه بنفس مطمئنة:
ـ لا والله لاأفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض.
فلما قطع الركب الحسيني شوطاً من الطريق، بدا لهم شخصٌ يقصدهم من بعيد، فتوجّسوا خيفة..!
فلم اقترب منهم نادى الحسين (عليه السّلام) قائلاً:
ـ من القادم..؟
فأجاب:
ـ السلام عليك يا ابن رسول الله، إنني عبدالله بن مطيع العدوي.
فقال الحسين (عليه السّلام):
ـ وعليك السلام. فما وراءك..؟
قال:
ـ جُعلت فداك.. أين تريد..؟
فأجابه (عليه السّلام):

ـ أما الآن فمكة. وأما بعد فاني أستخير اللّه.
فقال ابن مطيع:
ـ خار اللّه لك وجعلنا فداك. فاذا أتيت مكة فاياك أن تقرب الكوفة، فانها بلدة مشؤومة، بها قُتل أبوك وخُذل أخوك واغتيل بطعنةٍ كادت تأتى على نفسه..! الزم الحرم، فأنت سيد العرب لايعدل بك أهل الحجاز أحداً، ويتداعى إليك الناس من كل جانب. لاتفارق الحرم فداك عمي وخالي! فواللّه لئن هلكت لنُستَرَقَّنَّ بعدك..!
فقال الحسين (عليه السّلام):
ـ لقد نصحت فأحسنت، جزاك اللّه خيراً، إن الأمر إلا للّه وهو أحكم الحاكمين.
ثم ودعه وواصل طريقه نحو مكة.
وقطع ركب الحسين (عليه السّلام) الطريق في خمسة أيام، وكان القلق يخيم عليهم، فلربما حاصرهم رجال الوليد أو جند يزيد بن معاوية وحالوا بينهم وبين مكة أو قتلوهم.
وفي الليلة الثالثة من شهر شعبان، لاحت في الأفق أنوار مكة المكرمة تتهلّل وتتلألأ مرحبة بالركب القادم.
فدخلها الحسين (عليه السّلام) في هدأة الليل وهو يقرأ قول اللّه (عزّوجلّ):
«ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل» القصص: ٢٢.

فعانقتهم مكة ومسحت عنهم غبار الطريق بيدها الحانية وأسبغت عليهم من فيضها السماوى.

٩

كان المنذر بن الجارود العبدي أحد رؤساء الأخماس بالبصرة، وكان قد زوَّج ابنته المسماة بحرية لعبيد اللّه بن زياد والي البصرة من قبل معاوية بن أبي سفيان. فلما مات أقره عليها ابنه يزيد.

وذات يوم دخل المنذر على صهره ابن زياد في داره بالبصرة وهو يدفع أمامه رجلاً تلوح عليه سيماء الصالحين وهو يتعثر في القيود والسلاسل.

فبادره ابن زياد قائلاً:

ـ ماذا أحدثت بعدنا ياعمي، ومن هذا الشقي المقيد..؟

فقال المنذر:

ـ أصلح اللّه الأمير. إن هذا الرجل رسول الحسين بن علي، وقد بعثه من مكة بكتابٍ إلى رؤساء الأخماس بالبصرة يدعوهم إلى نفسه.

فقال ابن زياد:

ـ فهلاّ أطلَعتَني على هذا الكتاب..!

فدفع إليه المنذر بالكتاب قائلاً:

ـ سمعاً وطاعة أيها الأمير.

فقرأ ابن زياد الكتاب، وكان به:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. أما بعد، فان اللّه اصطفى محمّداً (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) من خلقه، وأكرمه بنبوته واختاره لرسالته، ثم قبضه إليه. وقد نصح لعباده وبلّغ ما أُرسل به. وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أننا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب اللّه وسنة نبيه، فان السنّة قد أميتت والبدعة قد أُحييت، فان تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد. والسلام».

فطرح ابن زياد الكتاب، وظهر الغضب في وجهه، والتفتَ إلى الرسول، وقال:

ـ قَبَّحَكَ اللّه من رسول..! أيدعونا الحسين إلى بيعته، وكان أحق به أن يلبي بيعة أمير المؤمنين يزيد..؟!

فشَدَّ الرجل قامته ونهض بقيوده، وقال:

ـ بل قَبَّحَكَ اللّه من ظالم وَلاّكَ ظالم، أفيبايع ابنُ بنت رسول اللّه يزيدَ اللاعب بالطنابير والقرود..؟!

فاستشاط ابن زياد غضباً وصاح به:

ـ صه أيها الجاهل..! واللّه لأقتلنك بجرءتك!

فقال الرجل برباطة جأش:

بل يقتلك اللّه بجورك وذنوبك ياعدو اللّه..!
فارتفعت الهمهمة بالمجلس، وعلت صيحات الاستنكار..!
فنادى ابن زياد رجاله وقال:
ـ خذوه فاسجنوه، فان لم يعد عما هو عليه فاضربوا عنقه..!
فجذبه رجلان من حرس ابن زياد بغلظة، وخرجا به وهما يضربانه ويُعَنِّفانه.
ثم أمر ابن زياد بالعطاء للمنذر، وصرفه ومن معه.
وعندما صار المنذر خارج الدار، التفت إلى مَن حوله، وقال في دهشة:
ـ قتلني اللّه..! لقد ظننت الرجل دسيساً من ابن زياد، فاذا به حقا رسول الحسين بن علي..!
ثم قلّب كيس النقود بين يديه وضحك ضحكات صاخبة، ثم مضى يهذي كالمجنون.
وكان الأحنف بن قيس ومسعود بن عمرو، وهما من رؤساء الأخماس بالبصرة قد علما بكتاب الحسين (عليه السّلام).
فكتب الأحنف إلى الحسين (عليه السّلام):
«أما بعد، فاصبر إن وعد اللّه حق، ولايستخفَّنَّكَ الذين لايوقنون».
وأمّا مسعود بن عمرو، فجمع إليه بني تميم وبني حنظلة وبني سعد، وقال لهم:

- كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم..؟
فقالوا:
- بخٍ بخٍ، أنت واللّه فقرة الظهر ورأس الفخر، حللت في الشرف وسطا وتقدمت فيه فرطا..!
فقال:
- فاني قد جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم فيه وأستعين بكم عليه.
قالوا:
إنا واللّه نمنحك النصيحة، ونجد لك الرأي، فقل حتى نسمع.
فقال مسعود:
- إن معاوية مات، فأهون به واللّه هالكاً ومفقودا، ألا وإنه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم، وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظن أنه قد أحكمه. وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعى الخلافة على المسلمين ويتأمّر عليهم بغير رضا منهم. وهذا الحسين بن علي وابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل له فضل لايوصف وعلم لاينزف، وهو أولى بهذا الأمر. وهآنذا أستشيركم وأسألكم، فأحسنوا - رحمكم اللّه - رد الجواب..!
فقام سيد بني حنظلة، وقال:
- نحن نَبلُ كَنانَتِك، وفرسان عشيرتك، لاتخوض غمرة إلا خضناها.
فقال مسعود بن عمرو:

ـ نصركم اللّه بنصركم ابن بنت رسوله.

ثم قام سيد بني تميم، فقال:

ـ نحن بنو أبيك وحلفاؤك يا أبا خالد، والأمر إليك، فادعنا إذا شئت.

فقال مسعود:

ـ وما تشاءون إلا أن يشاء اللّه، بيّضَ اللّه وجوهكم.

أما بنو سعد، فقد سكتوا..!

فقال مسعود بن عمرو:

ـ لا أسكت اللّه بني سعد بن زيد..! أما فيكم من ناصح أمين..؟

فقام رجل منهم، وتنحنح، وقال:

ـ يا أبا خالد، إن أبغض الأمور إلينا مخالفتك والعدول عن رأيك، ولكن صخر بن قيس كان قد أمرنا بترك القتال يوم الجمل، فحمدنا ما أمرنا، وبقي عزّنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك برأينا.

فسأله مسعود:

ـ وهل يبقى عز بالسكوت عن نصرة الحق؟!

فأجاب:

ـ إن لنا في يوم الجمل لعبرة، فامنحنا مهلة نتشاور.

فأعرض عنه مسعود قائلا:

ـ لايَعتَبِرُ إلاّ لَبيب. وقد كان أمركم يوم الجمل على غير عقل. واللّه لئن فعلتموها لارَفَعَ اللّه السيف عنكم أبدا، ولازال سيفكم فيكم..!!

١٠

أنهى الحسين (عليه السّلام) طوافه حول الكعبة الشريفة، وجلس بين الركن والمقام، فاجتمع حوله نفر من أهل مكة، وأحاط به القادمون من كل فج عميق لأداء مناسك العمرة.

وكان ابن الزبير قد لزم الكعبة، فهو يصلي ويطوف بعد أن فَرَّ من المدينة وفاته طلب الوليد بن عتبة.

فأتى وجلس إلى الحسين (عليه السّلام) مع من جلسوا، وأخذ يتحدث معه في شأن البيعة.

ولم يكن ابن الزبير حامداً للحسين (عليه السّلام) وجوده في مكة، لأنه عرف أن أهل الحجاز لن يبايعوه ولن يتابعوه أبداً وفيهم الحسين (عليه السّلام)، لأنه أعظم في أعينهم وأنفسهم وأطوع في الناس منه.

فراح ابن الزبير يشير على الحسين (عليه السّلام) بالخروج من مكة، وهو ساكت.

فلما ألحف ابن الزبير قال الحسين (عليه السّلام):

ـ لقد فَوَّضتُ أمري إلى الله، فلأنتظر نفاذ مشيئته.

وبينما هم جالسون، شق الجموع رجلٌ بدت عليه وعثاء السفر، فتقدم من الحسين (عليه السّلام)، وسَلَّمَ عليه، وأخرج من ملابسه

كتاباً ودفعه إليه.

ففضَّ الحسين (عليه السّلام) الكتا، وكان به:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. إلى الحسين بن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، من مسعود بن عمرو. أما بعد. فقد وصل كتابك إليّ، وفهمت ما ندبتني إليه ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك والفوز بنصيبي من نصرتك. وإن اللّه لم يُخلِ الأرض قط من عامل عليها بخير ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة اللّه على خلقه ووديعته في أرضه، تفرعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها، فَأَقدِم سعدت بأسعد طائر، فقد ذَلَّلتُ لك أعناق القوم وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها، وغسلت درن قلوبهم بماء سحاب مزن حين استهل برقها فلمع. والسلام» فابتسم الحسين (عليه السّلام)، وقال:

ـ آمنك اللّه من الخوف، وأعزّك، وأرواك يوم العطش الأكبر.

ولما علم ابن الزبير بفحوى الكتاب، زاد مرض قلبه، فأراد أن يزيح الحسين (عليه السّلام) عن طريقه، فقال له وكأنه ينصحه:

ـ فهلاّ ذهبت إلى ناصريك بالبصرة..؟!

فلم يلتفت إليه الحسين (عليه السّلام)، ونهض قائلا:

ـ لاتعجل يا ابن الزبير، فان قضاء اللّه لآت وإن إرادته لنافذة..!

١١

وكان النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي ممن تَخَلَّفوا عن بيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام)، والتحق بمعاوية وحارب إلى جانبه في صفين. فلما اطمأن معاوية إليه بعثه ليغير على منطقة اسمها «عين تمر»، فأغار عليها وأرعب أهلها، وسلبهم أموالهم، وعاد إلى معاوية بالغنائم فاستعمله على الكوفة عام٥٨ هـ.

ولما بلغ أهل الكوفة هلاك معاوية، وامتناع الحسين (عليه السّلام) عن بيعة يزيد، فانهم أرجفوا ولم يبايعوا يزيد، وأعلنوا نيتهم على بيعة الحسين (عليه السّلام). فضَيَّقَ النعمان والي الكوفة عليهم، واشتدَّ في قمعهم، وسَلَّطَ عليهم رجاله عَلَّه يُكرِهُهُم على الإقرار ببيعة يزيد.

فاجتمع حشدٌ منهم في دار سليمان بن صُرَد الخزاعي، فخطب سليمان فيهم، وقال:

ـ لقد علمتم بأن معاوية قد هلك وقَدِمَ على عمله، وقعد في مكانه ابنه يزيد. وهذا الحسين (عليه السّلام) قد تقبّض ببيعته، وخرج إلى مكة هربا من طواغيت آل أبي سفيان. وأنتم شيعته وشيعة أبيه من قبله، وقد احتاج إلى نصرتكم اليوم، فان كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوهن والفشل فلاتغروا الرجل من نفسه..!

فقالوا:

ـ بل نقاتل عدوه، ونقتل أنفسنا دونه.

قال:

ـ فاكتبوا إليه.

فكتبو إلى الحسين (عليه السّلام):

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. للحسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيّب بن نجبه ورفاعة بن شداد البجلي وحبيب بن مظاهر وعبداللّه بن وال وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك. أما بعد، فالحمد للّه الذي قصم عدوك الجبار العنيد الغشوم الظلوم الذي انتزى على هذه الأمة، فابتزها أمرها، وغصبَها فيأها، وتأمَّرَ عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال اللّه دولة بين جبابرتها وعتاتها، فبُعداً له كما بَعُدَت ثمود. وإنه ليس علينا إمام غيرك، فأقبل لعَلَّ اللّه يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولاجماعة، ولو قد بلغنا أنك أقبلت إلينا أخرجناه حتى يلحق بالشام إن شاء اللّه تعالى. والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته يا ابن رسول اللّه وعلى أبيك من قبلك، ولاحول ولاقوة إلاّ باللّه العلي العظيم».

وثم بعثوا بالكتاب مع رجلين منهم.

ثم لبثوا يومين، وأنفذوا نحو مائة وخمسين صحيفة.

ولبثوا يومين آخرين، وأرسلوا كتاباً فيه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. إلى الحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. أما بعد. فحيّ هلاّ، فان الناس ينتظرونك، ولارأي لهم في غيرك، فالعجل العجل، ، ثم العجل العجل، والسلام».

وأخذت الرسل والكتب تتوافد على الحسين (عليه السّلام) من أهل الكوفة، وهو يتأنّى، فيشددون الطلب، ولايجيب..!

وتكاثرت الكتب حتى ورد عليه في يوم واحد نحو ستمائة كتاب. وما زالت حتى وصلت إلى اثني عشر ألف كتاب..!

وعندماعلم يزيد بن معاوية بأمر الرسل والكتب، بعث إلى ابن عباس في مكة كتاباً فيه ترهيب لابن الزبير وترغيب للحسين (عليه السّلام)، وطلب إليه أن يعجل بالجواب.

فأجابه ابن عباس بكتاب أخبره فيه بأن عُمَّالَه أساءوا إلى الحسين (عليه السّلام) وعَجَّلوا له بالكلام الفاحش، فترك حرم جده ومنازل آبائه وجاء إلى مكة مستجيرا بحرم اللّه. ثم نصحه بألاَّ يريد له غائلة ولايرصده بمظلمة ولايحفر له مهواة فيقع فيها.

وحدث أثناء ذلك أن ورد على الحسين (عليه السّلام) كتاب من أهل الكوفة جاء فيه:

«أما بعد، فقد أخضَرَّ الجَناب وأينعَت الثمار، فاذا شئت فاقدم على جندٍ لك مجنّد، وإنَّ لك هنا مائة ألف سيف، فلاتتأخر، وإذا لم تُقدِم خاصمناك غداً بين يدي اللّه..!».

فلما تلاقت الرُّسُل واجتمعت كلها عند الحسين (عليه السّلام)، وصار لديه من الكتب ماملأ خرجين، فانه جلس إلى الرسل وسألهم عن أمر الناس. فقالوا:

- إنهم في انتظار قدومك لتحقيق البيعة.

عند ذلك قام الحسين (عليه السّلام)، وصَلَّى ركعتين بين الركن والمقام، وكتب كتاباً واحداً أنفذه مع هانيء بن هانيء السبيعي وسعيد بن عبداللّه الحنفي، وكانا آخر الرسل.

وكان نص الكتاب:

«بس اللّه الرحمن الرحيم. من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين. أمابعد، فان هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكتبكم وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم، وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جلكم أنه ليس علينا إمام فأقبل علّ اللّه يجمعنا بك على الحق والهدى. وأنا باعث إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فان كتب أنه قد اجتمع رأي ملأكم على مثل ماقدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم، فاني أقدم إليكم وشيكاً إن شاء اللّه. فلعمري ما الإمام إلاّ العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذلك. والسلام».

ثم دعا الحسين (عليه السّلام) مسلم بن عقيل ، وسلَّمه الكتاب ، وقال له:

- إني موجهك إلى أهل الكوفة، وسيقضي اللّه من أمرك مايحب ويرضى، فعليك بالتقوى واللطف وكتمان أمرك. فان رأيت الناس مجتمعين مستوثقين عجل إليّ بذلك، وأنا أرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء. فامض على بركة اللّه، وانزل عند أوثق أهل الكوفة.

فعانق ابن عقيل الحسين (عليه السّلام)، وقبّله، وودعه، وألقى على الكعبة الشريفة نظرة المودّع المفارق المشتاق، وكتم دموعه الحرّى في مآقيه المشتعلة، وانطلق إلى حال سبيله، وهو يدرك خطورة أمره وجسامة مهمته.

١٢

اشتدت الحرارة في «بطن الخُبيت»، وهو مكان يقع حَوالَي المدينة من جهة مكة.

وسطعت شمس الهجير بأشعتها المحرقة، فجعلت من رمال الصحراء رماداً مشتعلاً يكوي الأقدام ويلهب حشاشة القلوب فتنفطر من الظمأ.

وكانت أطياف السراب تلوحٍ في البيداء الشاسعة على شكل حلقات متتابعة تخدع الأبصار وتُحيرِّ النفوس. وبدا المكان كله وكأنه قطعة عظيمة من الرمضاء المستعرة قد اقتطعت من جهنِم حارقة.

وحط مسلم بن عقيل رحاله هو ومن معه في هذه المنطقة المفجعة

حول ماء في مكان يدعى «المضيق»، وقد استبد بهم التعب، وسال العرق غزيراً على وجوههم وأبدانهم، وتقرحت أكبادهم من شدة الحر ولهيب العطش.

وكتب مسلم إلى الحسين (عليه السّلام) يقول:

«أما بعد، فاني أقبلت من المدينة ومعي دليلان، فحادا عن الطريق، فَضَلاَّ، واشتد علينا العطش، فلم يلبثا أن ماتا. وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء، فلم نَنجُ إلاّ بحشاشة أنفسنا. وذلك الماء بمكان يدعى «المضيق» من «بطن الخبيت»، وقد تطيّرتُ من وجهي هذا، فان رأيت أعفيتني منه وبعثت غيري. والسلام».

وأرسل الكتاب مع قيس بن مُسَهَّر الصيداوي وظل ينتظر.

وكان مسلم بن عقيل قد غادر مكة متوجهاً إلى المدينة مع قيس بن مُسَهَّر الصيداوي وعمارة بن عبيد السلولى وعبدالرحمن بن عبداللّه الأزدي. فلما دخل المدينة ذهب وصلى في مسجد رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، وودع أهله، ثم استأجر دليلين من قيس. فلما تنكبا الطريق ضَلاّ ليلاً. وطلع النهار وقد نال منهما الحر والعطش، فعجزا عن المسير ووقعا على الأرض من شدة الإنهاك والظمأ.

ولما أشرقت الشمس بان لهما سنن الطريق، فأومآ إلى ابن عقيل، وقال أحدهما:

ـ عليك بهذا السمت فالزمه فان فيه نجاتك. وحاول مسلم ومن معه حملهما والوصول بهما إلى الماء.

فقال أحدهما وهو يلهث عطشا:
ـ لاعليك بنا وانج بنفسك أنت ومن معك.
فقال مسلم:
ـ كيف أترككما على هذه الحال وقد وضح الطريق واقتربنا من الماء..؟!
فقال الآخر:
ـ إن هذه أمارات الطريق وليست الطريق ويعلم اللّه ما طول المسافة بيننا وبين الماء.
ولم يكد الرجل ينهي حديثه حتى فاضت روحه.
ثم مالبث صاحبه أن لفظ أنفاسه هو الآخر..! فصلى عليهما مسلم ودفنهما وتابع سيره.
ولم يبرح ابن عقيل مكانه في «المضيق» حتى وافاه ابن مُسَهَّر بكتاب من الحسين (عليه السّلام). وكان فيه:
«فقد خشيت ألاّ يكون حَمَلَكَ على الكتابة إليّ في الاستعفاء من الوجه الذي وجهتك إليه إلا الجُبن. فامض لوجهك الذي وجهتك إليه. والسلام».
فلما قرأ مسلم الكتاب انتَفَضَ قائماً، وقال:
ـ أما هذا فلست أتخوفه على نفسي..!
ثم تجهَّزَ للمسير، ومضى في طريقه.
ومر ابن عقيل بماء لطيء، فنزل عليه ليستريح ويتزود بالماءِ. فلما همّ

بالرحيل نظر حوله، فاذا بصياد قد رمى ظبيا فصرعه..!
فتفاءل مسلم وقال لمن معه:
ـ يُقتل عدونا إن شاء اللّه..!
وقطع مسلم الطريق في نحو عشرين يوماً قضاها في مواجهة الأخطار وتحمَّل فيها المشاق والمتاعب، فهوّن كل ذلك عليه أنه في حب الحسين (عليه السّلام) وسبيل آل البيت الأطهار ورضا المولى سبحانه.
وقبل غروب أحد الأيام من شهر شوال بدت له الكوفة بمزارعها وبساتينها وديارها، فانتظر حتى غربت الشمس.
ثم دخلها ليلاً، ونزل دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي.

١٣

ولما علم أهل الكوفة بقدوم مسلم بن عقيل فإنهم توافدوا عليه واجتمعوا إليه في دار المختار الثقفي.
وقرأ عليهم ابن عقيل كتاب الحسين (عليه السّلام)، فبكوا وانتحبوا.
وقام رجل منهم وهو عابس بن شبيب الشاكري، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال:
ـ أما بعد، فاني لأخبرك عن الناس ولاأعلم ما في أنفسهم وما أغرنك منهم. ولكنّي واللّه أحدثك عما أن موَطِّنٌ نفسي عليه. واللّه لأجيبنكم إذا دعوتم، ولأقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي

دونكم حتى ألقى اللّه، لاأريد بذلك إلاّ ما عند اللّه.
فقام حبيب بن مظاهر، وقال مخاطباً الرجل:
ـ رحمك اللّه، قد قضيت ما في نفسك بواجز من القول.
ثم قال:
ـ وأنا واللّه الذي لا إله إلاّ هو على مثل ما هذا عليه.
ثم قام سعيد بن عبداللّه الحنفي، وقال:
ـ وأنا واللّه على مثل ما أنتما عليه.
وأخذت جموع الناس تختلف إلى المكان، وبدأ أهل الكوفة يبايعون ابن عقيل نيابة عن الحسين (عليه السّلام) حتى بايعه نحو ثمانية عشر ألفاً على أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم، وصَلُّوا خلفه في مسجد الكوفة.
ففرح ابن عقيل، وارتاحت نفسه، وهدأ قلبه، وراودته الآمال وهو يتخيل الحسين (عليه السّلام) وقد أقبل إلى الكوفة فحقق له الناس البيعة، وفشل يزيد في إتمام مؤامرة أبيه معاوية.
وكتب مسلم إلى الحسين (عليه السّلام) يقول:
«الرائد لايكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابي».
وبعث بالكتاب مع عابس بن شبيب الشاكري.
ومازال زال الناس يتواكبون على ابن عقيل في دار المختار الثقفي ويقدمون له البيعة حتى ارتفع عدد المبايعين إلى نحو أربعين ألفاً.

فساء ذلك أشياع بني أمية، وأخذوا في التحرك قبل أن تفلت الأمور من أيديهم وينقطع رجاؤهم.

فمشوا إلى النعمان بن بشير والى الكوفة. فقام النعمان وجمع الناس، وصعد المنبر، وقال:

ـ أما بعد، فاتقوا اللّه عباد اللّه، ولاتسارعوا إلى الفتنة والفرقة فان فيهما يهلك الرجال وتسفك الدماء، وتُغصَب الأموال. إني لاأقاتل من لم يقاتلني، ولاأثب على من لايثب عليّ، ولاأشاتمكم ولاأتحرش بكم، ولاأنبه نائمكم، ولاآخذكم بالقذف والظنة ولاالتهمة. ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم، فواللّه الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ماثبت قائمُهُ في يدي ولم لم يكن لي منكم ناصر. أما وإني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل.

فنهض عبداللّه بن مسلم الحضرمي أحد حلفاء بني أمية، فقال:

ـ إنه لايُصلح ما ترى إلا الغشم، وإن هذا الذي أنت عليه لرأى المستضعفين..!

فأجابه النعمان:

ـ أن أكون من المستضعفين في طاعة اللّه أحب إليّ من أن أكون من الأعزين في معصية اللّه..! ونزل عن المنبر.

فاغتاظ عبداللّه بن مسلم، وخرج. وكتب إلى يزيد بن معاوية:

«أما بعد. فان مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة، فبايعه الناس

للحسين بن علي. فان كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفِّذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فان النعمان بن بشير رجل ضعيف، أو هو يتضاعف».

ثم كتب إلى يزيد جماعة آخرون أيضا منهم عمارة بن عقبة، وعمر بن سعد.

فعندما اجتمعت الكتب لدى يزيد، دعا إليه سرجون مولى أبيه معاوية، وكان رومياً، وقد وضعه معاوية على ديوانه. فأطلعه يزيد على الكتب، وقال طالباً مشورته:

ـ فمن أستعمل على الكوفة..؟

فسأله سرجون:

ـ لو نُشر لك معاوية أكنت تأخذ برأيه..؟

فأجابه:

ـ أجل..!

فأخرج له قرطاسا، وقال له:

ـ هذا عهد معاوية لعبيداللّه بن زياد، وقد أمر به قبل موته..!

فاستفسر يزيد متعجباً:

ـ وما منعك أن تعلمني..؟!

فأجابه سرجون:

ـ ما منعني سوى أنك عاتبٌ عليه..!

فصرفه يزيد، وسيَّرَ رسولَين أحدهما إلى الكوفة يحمل كتاباً بعزل

النعمان بن بشير، والآخر إلى البصرة، وهو مسلم بن عمرو الباهلي، ومعه كتاب إلى ابن زياد بجمع البصرة والكوفة. وفيه:

«إن ابن عقيل في الكوفة يجمع الجموع ليشقّ العصا. فسِر حين يَأتيك كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتى تثقفه، فتوثقه أو تقتله أو تنفيه».

فلما قرأ عبيداللّه بن زياد الكتاب تعجَّلَ الرحيل إلى الكوفة. ثم صعد المنبر قبل مغادرة البصرة وخطب في أهلها، فقال:

ـ أما بعد. فواللّه ما تقرن بي الصَّعبَة، ولايُقعقع بي. وإني لَنَكِلٌ لمن عاداني وسمٌّ لمن حاربني، أنصفَ القارة من راماها..! يا أهل البصرة! إن يزيد ولّاني الكوفة وأنا غادٍ إليها الغداة، وقد استخلفتُ عليكم أخي عثمان بن زياد. وإياكم والخلاف والإرجاف. فواللّه الذي لا إله غيره لئن بلغني عن أحد منكم خلاف لأقتلنه وعرّيفه ووليّه، ولآخذنّ الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لي، ولايكون فيكم مخالف ولامشاق..!

ثم جمع رجاله وأسرع إلى الكوفة ليصلها قبل الحسين (عليه السّلام).

١٤

وكان موسم الحج قد اقترب، وأخذ الحجيج يتوافدون على مكة المكرمة لأداء المناسك.

فبعث يزيد إلى عمرو بن سعيد الأشدق عامله الجديد على المدينة بعد عزل الوليد بن عتبة، وعقد له لواء الحج، وأمره أن يتوجه إلى مكة على رأس جيش جرّار، وأن يقبض على الحسين (عليه السّلام) سرّاً، فان لم يستطع قتله غيلة وفتك به ولو متعلّقاً بأستار الكعبة.

كما دَسَّ يزيد ثلاثين رجلاً من أشرار بني أمية وأمرهم بقتل الحسين (عليه السّلام) بشتى الحيل والوسائل وعلى أي حال كان.

ولما علم الحسين (عليه السّلام) بمكيدة يزيد، عقد العزم على التوجه إلى الكوفة وقد تكدَّسَت لديه كتب أهلها بمشايعته ومبايعته.

وكان (عليه السّلام) قد أحرم بالحج، فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وقصّر من شعره وأحلّ من الاحرام وجعلها عمرة مفردة، ولم يتمكن من إتمام الحج حتى لايقع في شباك يزيد بن معاوية، وأسرع بالتهيؤ للخروج من مكة قبل أن يفد إليها عمرو بن سعيد.

وقبل أن يغادر مكة، قام الحسين (عليه السّلام) خطيباً في الناس، فقال:

ـ الحمد للّه وما شاء اللّه ولاقوة إلاّ باللّه، وصلّى اللّه على رسوله. خُطّ الموت على ولد آدم مَخَطَّ القلادة على جيد الفتاة. وما أولهني لأسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرعٌ أنا ملاقيه، كأني بأوصالي تقطّعُها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفا وأجربةً سغبا. لامحيص عن يوم خُطَّ بالقلم. رضى اللّه رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور

الصابرين. لن تشذ عن رسول اللّه لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تُقرّ بهم عينه، وينجز بهم وعده.

من كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء اللّه نفسه فليرحل معنا، فاني راحلٌ مصبحاً إن شاء اللّه تعالى.

ولما نَمَى الخبر إلى عبداللّه بن الزبير، خفّ إلى الحسين (عليه السّلام)، وقال له:

ـ لا أدري لماذا تركنا هؤلاء القوم وكففنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم..!!

ثم سأله بعد برهة من الصمت:

ـ أخبرني إلى أين تريد أن تذهب..؟

فأجابه الحسين (عليه السّلام):

ـ إلى الكوفة إن شاء اللّه.

فعقّب ابن الزبير قائلا:

ـ أما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها..!

فنظر إليه الحسين (عليه السّلام) نظرة المتفحص وكأنه اكتشف ما يجول برأسه..!

فتدارك ابن الزبير موقفه، واستطرد:

ـ ولكن.. أما أنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر هنا، لما خالفنا عليك..!

فقال له (عليه السّلام):

ـ إن أبي حدثني أن بمكة كبشاً به تُستحل حرمتها، فما أحب أن أكون ذلك الكبش..! ولئن أُقتل خارجاً منها بشبر أحب إليّ من أن أُقتل فيها.

وأيمُ الله لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيّ حاجتهم. والله ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في السبت..!

فاقتنص ابن الزبير الفرصة وقال:

ـ فأقم إن شئت وتوليني أنا الأمر فتطاع ولاتُعصى..!

فأفحمه الحسين (عليه السّلام) قائلاً:

ـ ولاأريد هذا أيضاً..!!

فشعر ابن الزبير بحرج موقفه، فخرج من عنده مطرقاً، وهو لايدري من سيكون ذلك الكبش!!

وكان عند الحسين (عليه السّلام) جماعة من أصحابه فالتفت إليهم وقال:

ـ إن هذا ليس شيء أحب إليه من أن أخرج من الحجاز..!!

ثم جاءه عبدالله بن عباس، فقال له:

ـ يا ابن عم، إني أتصبَّر ولاأصبر..! إني أتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال. إن أهل العراق قومُ غدرٍ فلاتقربنهم..! أقم في هذا البلد فانك سيد أهل الحجاز. فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم أقدم عليهم. فان

أبيت ألاّ تخرج فسِر إلى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة وطويلة، ولأَبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاءك، فاني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية.

فلما أتم ابن عباس كلامه، قال له الحسين (عليه السّلام):

ـ يا ابن عم، إني واللّه لأعلم أنك لي ناصحٌ مشفق، ولقد أزمعت وأجمعت المسير.

فقال له ابن عباس:

ـ لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لاينظر إليه أحدٌ معك. واللّه الذي لا إله إلاّ هو لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع الناس علينا أطعتني فأقمت، لفعلتُ ذلك..!

ثم خرج ابن عباس من عنده.

فمر بابن الزبير، فقال له:

ـ قرّت عينك يا ابن الزبير..!

فقال:

ـ وماذا تعني ياابن عباس..؟!

فأنشد ابن عباس:

يالكِ من قبّرةٍ بمعمرٍ * خلالك الجو فبيضي واصفري
ونقّرى ما شئتِ أن تنقّري..!

قد رُفع الفخ فماذا تحذري لابد من أخذك يوماً فاصبري!

فقال ابن الزبير مستنكراً:

ـ أتُعرِّضُ بي..؟!

فأجابه ابن عباس قائلاً:

ـ كلا..!

ثم التفت إليه وقال وهو يمضي:

ـ هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخلّيك بالحجاز..!!

١٥

أرخى الليل سدوله على مدينة الكوفة التي أخذت الأحداث فيه تترى بعد أن وصلها مسلم بن عقيل.

وتحت ملاءة الظلام دخل المدينة مما يلي النجف رجلٌ ملثّم عليه عمامةٌ سوداء قد ارتدى زي الحجاز وخلفه جماعة من الرجال.

ومَرَّ الرجل بجمعٍ من الكوفيين على قارعة الطريق، فوقفوا تبجيلاً له، وقالوا:

ـ مرحباً بابن رسول اللّه..!

ثم مَرَّ بامرأةٍ عجوز، فصاحت:

ـ اللّه أكبر.. أقبَلَ علينا ابن رسول اللّه..!

وما لبث أن اجتاز جماعة، فتصايحوا:

ـ مرحباً بك يا ابن رسول اللّه، إنّا معك أكثر من أربعين ألفا..!
ومَرَّ بآخرين فازدحموا عليه وأمسكوا بذنب راحلته، وقالوا:
ـ السلام عليك ياابن رسول اللّه، قَدِمتَ خيرَ مقدم..!
كل ذلك والرجل ساكتٌ لايتحدث..!
ومازال كذلك حتى وافى قصر الامارة، فأغلق النعمان بن بشير والي الكوفة الباب دونه عليه وعلى خاصته.
فناداه من كانوا مع الرجل الملثم:
ـ افتح الباب..!
فلم يفتح النعمان، بل أشرف عليهم من القصر، وقال:
ـ أنشدك اللّه ألاّ تَنَحَّيتَ يابن رسول اللّه، واللّه ما أنا بُمسَلِّم إليك أمانتي ومالي في قتالك من أرب..!
فجعل الرجل الملثم لايكلمه، والنعمان يقول:
ـ أستحلفُكَ بجدك رسول اللّه ألاّ عدت من حيث أتيت، فليس لي غير ردك من سبيل ما دمتُ والياً على الكوفة..!
فصاح الرجل الملثم بصوت أجش:
ـ افتح لافتحت.. فقد طال ليلُك..!!
وسمع صوته واحدٌ من أهالي الكوفة، فعرفه، فنكص إلى القوم وقال بهلع:
ـ إنه ابن زياد وربِّ الكعبة..!
فوجل الناس، وتقهقروا حتى وطأ بعضُهم بعضاً، وهم يتصايحون:

ـ ابن زياد..! ابن زياد..!

فنزل النعمان من أعلى القصر وفتح له، فدخل، وضربوا الباب في وجوه الناس، فتفرَّقوا، وانفضُّوا من أمام قصر الامارة.

وعندما انبلج الصباح جمع ابن زياد الناس، فخرج إليهم، وخطب فيهم قائلاً:

ـ أما بعد، فإنّ أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ولاّني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشِّدة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبعٌ فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده، وإنّ سيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي. فليبق امرؤ على نفسه، وأبلغوا هذا الرجل الهاشمي ابن عقيل أن يتّقي غضبي..!

وأمر ابن زياد بجماعة من أهل الكوفة فضُربَت أعناقهم على مشهدٍ من الناس.

ثم جمع المناكب والعرفاء، وأخذهم والناس أخذاً شديداً، وقال لهم:

ـ اكتبوا إليّ الغرباء، ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية وأهل الرِّيَب الذين شأنهم الخلاف والشّقاق والنِّفاق، ثم يُجاء بهم لنرى رأينا فيهم. فمن كَتَبَهم لنا فبريء، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا من في عرافته ألاّ يخالفنا فيهم مخالفٍ، ولايبغي علينا منهم باغٍ. فمن لم يفعل بَرِئت منه الذمة، وحلالٌ لنا دمه وماله. وأيما عريفٌ وُجِدَ في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا، صُلب على باب داره، وأُلغيَت تلك العرافة من العطاء..!

ثم تركهم وخرج، وقد بثّ العيون في الكوفة.

١٦

ودخلَ أحد العرفاء في مائة من الشرطة على ابن زياد بشيخ أصلع تبدو عليه سيماء التقوى والصلاح، وقد يَبُسَ عليه جلدُه من الزهد والعبادة. وكان قد عاد لتوه من العمرة. فلما أوقف بين يديه، نظر إليه ابن زياد نظرة المستريب، وقال:

ـ من هذا..؟!

فأجابه عمرو بن حريث، وكان جالساً عنده:

ـ ألاَ تعرف من هذا..؟!

فقال ابن زياد:

ـ ومن هو..؟!

قال عمرو:

ـ إنه ميثم التمار الكذّاب مولى الكذّاب علي بن أبي طالب..!

فاعتدَلَ ابن زياد في جلسته وقال لميثم:

ـ ما يقول عمرو..؟!

فأجاب ميثم:

ـ لقد كذب..! بل أنا الصادق مولى الصادق علي بن أبي طالب أمير المؤمنين حقا..!

فاحتقن وجه ابن زياد من الغضب، ولكنَّهُ تمالك نفسه، وسأله:
- أخبرني ما أخبركَ صاحبُك أنّي فاعلٌ بك..!
فقال ميثم:
- أخبرني أنك تصلبُني عاشرَ عشرة أنا أقصرهم خشبة وأقربهم إلى المَطهَرة، وأني لأوّل خلق اللّه أُلجَمُ في الاسلام كما تُلجَم الخيل..!
فعقّب ابن زياد معانداً:
- لتحالفنّه..!!
فقال ميثم بطمأنينة بالغة:
- ويحك! كيف تخالفه..؟! فواللّه ما أخبرني إلا عن النبي (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) عن جبرائيل عن اللّه تعالى، فكيف تخالف هؤلاء..؟!
فسأله ابن زياد:
- وهل صرَّح باسمي..؟
فأجاب:
- بلى. لقد قال لي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام): يأخذك العُتُلّ الزنيم إبن الأمة الفاجرة عبيداللّه بن زياد..!
فانفجر ابن زياد محنقا:
- واللّه لأقطعن يديك ورجليك، ولأدعنّ لسانك حتى أكذبك وأكذبه مولاك..!
عند ذلك تَبَسَّمَ ميثم وقال:

ـ والنخلة التي بالكناسة، والتي ما غُذّيت إلا لها وما غُذّيت إلاّ لي..؟!

فقهقه ابن زياد وقد انفرجت أساريره، وأخذته نشوة الظفر، وقال:

ـ لقد قطعتها..!!

ثم أمر به فأودع المحبس..!

١٧

ولما علم مسلم بن عقيل بما كان من أمر ابن زياد وإطلاق يده في الشيعة وأمره العرفاء بالقبض عليهم وعلى وجوههم، فانه غادر دار المختار الثقفي في جوف الليل، ولجأ إلى دار هانيء بن عروة المرادي.

فلقيه ابن عروة على الباب، وسأله:

ـ ما الذي أتى بك في هذه الساعة يامسلم..؟

فأجابه:

ـ أتيتك لتجيرني وتضيفني.

فقال هانيء:

ـ لقد كلفتني شططا..! لولا وقوفك على بابي..! غير أنه يأخذني من ذلك ذمام. ادخل..! فأقام ابن عقيل في داره على تسترٍ واستخفاء من ابن زياد، وأخذ الشيعة يختلفون إليه وهم يتواصون بالكتمان حتى لاينكشف أمرهم.

وكان في دار هانيء بن عروة رجلٌ من محبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) وشيعته وعلى قدر عظيم من المنزلة والجاه، وهو شريك بن الأعور الهمداني البصري. وكان قد جاء مع ابن زياد من البصرة، ثم نزل عند هانيء لما بينهما من صحبة ومواصلة.

وبعد بضعة أيام من نزوله لدى هانيء، مرض شريك مرضا شديدا. فأرسل إليه ابن زياد وأخبره أنه يريد أن يعوده.

وكان شريك يجلس مع هانيء ومسلم، فقال لهانيء:

ـ إن هذا الفاجر عائدي العشية، فاذا جَلَسَ فاقتله..!

فقال هانيء:

ـ لاأحب أن يُقتل في داري.

فقال شريك:

ـ إنه لئيم وآثم، فاقتله ثم اقعد في القصر ليس أحد يحول بينك وبينه. فان بَرئتُ من وجعي سرتُ إلى البصرة حتى أكفيك أمرها.

فتساءل هانيء:

ـ أقتلُه وهو في ضيافتي وجواري..؟!

فأجابه شريك مُطمئِناً:

ـ لاجيرة لفاسق..!

ثم التفت إلى ابن عقيل وقال:

ـ لايفوتنك إذا جلس..! وعلامتك أن أقول: اسقوني ماء..!

فلما كانت العشية جاء ابن زياد، فدخل مسلم إلى حجرة مجاورة.

وجلس ابن زياد ومعه بعض رجاله وبجواره هانيء بن عروه، فسأل شريك البصري عن علّته.

فتأوه شريك وغمغم بكلام غيرمفهوم..!

فأطال ابن زياد وألَحً في السؤال.

وتألَّم شريك، وصاح:

- اسقوني ماء..!

فلم يخرج إليه أحد.

فرفع شريك صوته، ونادى:

- اسقوني ماء..!!

فلم يجبه أحد..!

فلما رأى أن أحداً لايخرج إليه خشى أن يفوته، فأخذ يقول:

ما الإنتظار بسلمى أن تُحيُّوها
كأسُ المنيةِ بالتعجيل اسقوها..!

وأعاد ذلك ثلاث مرات، وأخذ يخلط في كلامه ويقول:

- اسقونيها ولو كان فيها حتفي..!!

فلم يخرج أحد..!

فقا ابن زياد باستغراب:

- ما شأنه..؟ أترونه يخلط..؟!

فأجابه هانيء:

- بلى. مازال هذا دأبه قبيل الصبح حتى ساعته هذه..!

وتلفت ابن زياد حوله متوهماً. فغمز إليه أحد رجاله، فنهض.
فأراد شريك أن يستمهله، فقال له:
ـ ابق أيها الأمير، فاني أريد أن أوصى إليك.
فأجابه:
ـ سأعود إليك..!
وخرج ابن زياد وفي نفسه شيء..!
فعندما كان يقطع ساحة الدار إلى باب الخروج قال له الرجل الذي غمز له:
ـ لقد أراد قتلك..!
فقال ابن زياد:
ـ كيف ذلك، وفي دار هانيء، ويد أبي عنده..؟!
فأجابه الرجل:
ـ هو ما قلت لك..!
ولما خرج ابن زياد دخل مسلم بن عقيل على هانيء وشريك والسيف في يده.
فبادره شريك لائماً:
ـ ما منعك من قتله..؟!
فأجاب:
ـ ما منعني سوى خصلتين: كراهية هانيء أن يُقتل في داره، وحديث النبي (صلى اللّه عليه وآله وسلّم): إن الايمانَ قيد الفتك، فلايَفتِكُ

مؤمن..!

فقال هانىء:

ـ أما والله لو قَتَلَتَهُ لقتلتَ فاسقاً فاجراً كافراً..!

ومالبث شريك أن مات بعد ذلك بأيام..!!

١٨

وأخذ ابن زياد يجدّ في البحث عن ابن عقيل ويتتبع أخباره ليمسك به. فلما خفي عليه أمره دعا مولىً له اسمه «معقل» وكان يتميّزُ بالخبث والمكر والدهاء. فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يطلب ابن عقيل، وأن يحسن التوصل إلى أصحابه ويدفع إليهم المال ويُعلِمهُم أنه منهم.

فانطلق معقل يجول في الكوفة حتى انتهى به المطاف يوما إلى المسجد الأعظم. فجلس به يتنسَّم الأخبار. فرأى الناس يشيرون إلى رجل يصلي، وسمعهم يقولون:

ـ إن هذا يبايع للحسين..!

وكان الرجل هو مسلم بن عوسجة الأسدي.

فلما فرغ من صلاته، تقرب منه معقل وجلس إليه، وأخذ يجاذبه أطراف الحديث.

ثم قال له:

ـ ياعبدالله، إني امرؤ من أهل الشام مولى لذي الكلاع. وقد أنعم الله عليّ بحبّ أهل البيت. وهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)، فلم أجد أحداً يدلّني عليه أو يعرِّفني مكانه. فبينما أنا جالس في المسجد سمعتُ نفراً من المسلمين يقولون: هذا رجلٌ له علمٌ بأهل هذا البيت، وإني أتيتك لتقبض هذا المال وتدخلني على صاحبك فأبايعه، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائه..!

فاغتر ابن عوسجة بكلام معقل وقال له:

ـ احمد الله على لقائك إياي، فقد سرني ذلك لتنال ما تحب، ولينصر الله بك أهل بيت نبيه، غير أنه قد ساءني معرفتك إياي بهذا الأمر قبل أن يُنمى مخافة الطاغية ابن زياد وسطوته..! فطمأنه معقل قائلا:

ـ لايسوءنك ذلك، فانني والله لكتوم..!

فأخذ ابن عوسجة بيعته، وأخذ عليه الأيمان والعهود المغلظة ليناصحنّ وليكتمن.

فوافقه معقل وأعطاه من ذلك ما رضي به.

فقال ابن عوسجة:

ـ اختلف إليّ أياماً في منزلي، وأنا طالبٌ لك الإذن على صاحبك..!

ثم لم تمض سوى بضعة أيام حتى أخذ له ابن عوسجة الإذن وأدخله على ابن عقيل، فبايعه، وسَلَّمَ المال إلى أبي ثمامة الصائدي الذي كان ابن عقيل قد كَلَّفَهُ بجمع الأموال لشراء السلاح.

فظل معقل يختلف إلى ابن عقيل كل يوم، فيعرف الأخبار ثم يرفعها إلى ابن زياد في المساء..!

ولم تكن العرب في ذلك الزمان تحترس ولاتعرف الغيلة والفتك، وكان ذلك عندهم قبيحاً يُعَيَّرُ به فاعلُه، لأن الشجاعة غير ذلك، والغيلة فعل العجزة من الرجال.

فلما وَضُح الأمر لابن زياد واستوثق خبر مسلم بن عقيل وأنه مختبىء في دار هانى بن عروة، فإنه دعا إليه أسماء بن خارجة، ومحمد بن الأشعث، وعمرو بن الحجاج الزبيدي الذي كانت ابنته تحت هانىء، وسألهم:

ـ لماذا انقطع عنا هانىء، وما الذي يمنعه من إتياننا..؟!

فقال ابن خارجة:

ـ ما ندري..!

وقال ابن الأشعث:

ـ قيل إنه مريض..!

وقال ابن الحجاج:

ـ عَلَّ الشكوى تمنعه..!

فعلّق ابن زياد:

ـ سمعت ذلك، ولكن بلغني أنه قد برأ، وهو يجلس على باب داره. فاذهبوا إليه وقولوا له ألاّ يدع ما عليه من حقنا، فانى لاأحب أن يفسد عندي مثله من الأشراف..!

فأتوه في العشية، وسألوه عن حاله.
وقال له ابن الحجاج:
ـ إن الأمير قد سأل عنك، وقال لو أعلم أنه شَاكٍ لعُدتُه.
وقال ابن الأشعث:
ـ لقد بلغه أنك تجلس على باب دارك فاستبطأك والإبطاء والجفاء لايحتمله السلطان..!
وقال ابن خارجة:
ـ أقسمنا عليك لو ركبت معنا إليه.
فدعا ابن عروة بثيابه فلبسها، وركب بغلته وسار معهم.
فلما اقتربوا من قصر الامارة أحست نفسه بالشر..! فقال لحسان بن أسماء بن خارجة، وكان معهم، متوجساً:
ـ يا ابن أخي، إني لهذا الرجل لخائف، فما ترى؟ فأجابه:
ـ ما أتخوف عليك شيئاً فلاتجعل على نفسك سبيلا.
فدخلوا على ابن زياد.
وكان عبيدالله بن زياد يجلس مع جماعة من أوليائه ومعهم شريح القاضي.
فلما اقترب القوم من المجلس ومعهم هانيء بن عروة مال ابن زياد على شريح، وأنشد:
أتتك بخائن رجلاه تسعى يقود النفس منها للهوانِ..!
فلما جلسوا احتفى ابن زياد بمقدم هانيء وأظهر له البشاشة والكرم.

ولما استقر بهم المجلس، توَجه ابن زياد بالحديث إلى شريح القاضي، وأشار إلى هانىء، وتمثل بقول عمرو بن معد يكرب:

أريـد حيـاتـه ويريـد قتلـي   عَذيرك من خليلك من مراد ..!

فاستنكر هانىء ذلك منه، وقال:

ـ وما ذاك..؟!

فابتسم ابن زياد ساخراً، وقال:

ـ ياهانىء..! ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين..؟

فقال هانىء:

ـ ماذا تعني..؟

فقال ابن زياد:

ـ نعم..! جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له المال والسلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفي عليّ..!!

فأنكر هانىء قائلا:

ـ ما فعلت ذلك..!

فأكَّد ابن زياد:

ـ بلى.. فعلت..!

فلما طال الحديث والنزاع بينهما، وهانىء يأبى إلاّ مجاحدته ومناكرته، استدعى ابن زياد معقلا، وسأل ابن عروة:

ـ أتعرف هذا..؟!

فأسقط في يده، وأجاب:

ـ نعم.

فقال ابن زياد:

ـ فلماذا أنكرت وكذبتني..؟!

فأجاب:

ـ اسمع مني وصدقني، فواللّه ما كذبتك. واللّه مادعوته إلى منزلي حتى جاءني وجلس على بابي يسألني النزول عليّ، فاستحييت من رده ولزمني من ذلك ذمام، فأدخلته داري وضيّفتُه وآويته. وقد كان من أمره الذي بلغك. فان شئت أعطيتك الآن موثقاً تطمئن به ورهينة تكون في يدك حتى أنطلق وأخرجه من داري فأخرج من ذمامه وجواره وأعود إليك.

فلم يقبل منه ابن زياد ذلك، وقال:

ـ لا واللّه لاتفارقني أبداً حتى تأتيني به..!

فرفض هانيء قائلا:

ـ واللّه لا أجيئك به..! آتيك بضيفي تقتُله..؟!

فأصرّ ابن زياد:

ـ واللّه لتأتيني به..!

فأبى هانيء وقال:

ـ واللّه لآتيك به..!

فلما كثر الجدال بينهما، قال مسلم بن عمرو الباهلي:

ـ أصلح اللّه الأمير.. خلّني وإياه حتى أكلمه.
فأذن له.
فاختلى به ناحية، وقال له:
ـ ياهانيء.. أنشدك اللّه أن تقتل نفسك وأن تدخل البلاء في عشيرتك، فواللّه إني لأُنفَس بك على القتل. إن هذا الرجل ابن عم القوم ليسوا بقاتليه ولاضائريه، فادفعه إليه فانه ليس عليك بذلك مخزاة ولامنقصة، إنما تدفعه إلى السلطان..!
فأجابه هانيء:
ـ بلى واللّه..! إن عليّ في ذلك خزياً وعاراً..! لاأدفع ضيفي وأنا صحيح شديد الساعد كثير الأعوان.
واللّه لو كنت واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه..!
فلما سمع ابن زياد ذلك، قال:
ـ ادنوه مني..!
فأدنوه.
فقال مهدداً:
ـ واللّه لتأتيني به أو لأضربن عنقك..!
فقال هانيء:
ـ إذن واللّه لتكثر البارقة حول دارك..!!
فغضب ابن زياد، وقال:
ـ أبالبارقة تخوفني..؟!

ثم أمر رجلاً كان قائماً على رأسه وفي يده معكزة، وقال له:
ـ خذه..!
فأخذ الرجل ضفيرتَي هانيء. ولم يزل ابن زياد يضرب أنفه وجبينه وخدّه بالقضيب حتى كسر أنفه وسيّل الدماء على ثيابه ولحيته، ونثر لحم جبينه وخده على لحيته حتى كُسر القضيب..! والتفت هانيء إلى جواره فوجد شرطياً قائماً وفي خصره سيف، فجاذبه قائم السيف، فلم يستطع أن يتمكن منه، ومنعه الشرطي. عندئذ صاح ابن زياد وقال:
ـ أحروريٌّ أنت! لقد أبيح دمك وحلَّ لنا قتلك..!
ثم أمر جلاوزته قائلاً:
ـ جُرُّوه..!!
فجروه وألقوه في محبس القصر وشَدَّدوا عليه ا لحراسة.
فلما رأى ابن خارجة ذلك استنكره، وقال مخاطباً ابن زياد:
ـ أرُسُلُ غدرٍ نحن..؟! أمرتنا أن نجيئك بالرجل فلَمَّا أتيناك به هشمت وجهه وسَيَّلتَ دماءه وزعمتَ أنك تقتله..؟!
فاغتاظ ابن زياد، وصاح به:
ـ وإنك ههنا..؟!
وأمر به فضربه الحرس وعنَّفوهُ، ثم أجلسوه بعيداً..!
فجلس ابن خارجة مستسلماً وهو يردِّد:
ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون. إلى نفسي أنعاك ياهانىء..!

فعقَّب ابن الأشعث قائلاً:

ـ قد رضينا بما رأى الأمير.. لنا كان أو علينا، إنما الأمير مؤدِّب..!

فلما طار الخبر إلى مذحج عشيرة هانيء بن عروة، فإنهم أسرعوا ووقفوا أمام قصر الإمارة في حشدٍ عظيم. ثم صاح رجل منهم:

ـ هذه فرسان مذحج ووجوهها، لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة. ولكن بلغنا أن صاحبنا قد قُتل، فأعظمنا ذلك.

فخشى ابن زياد، وقال لشريح القاضي:

ـ قم وادخل على صاحبهم، فانظر إليه، ثم اخرج إليهم وأعلِمهُم أنّه حي لم يُقتل.

فقام شريح ومعه عين لابن زياد، ودخل على هانيء.

فقال هانيء والدماء تسيل على لحيته وقد سمع الضجة بالخارج:

ـ يالله..! يالمسلمين..! إنى لأظنها أصوات مذحج..! إنه إن دخل عليّ عشرة نفرٍ منهم لأنقذوني..!

فلما سمع شريح كلامه تركه وخرج، وأشرف على القوم من أعلى القصر، وقال صائحاً:

ـ يارجال مذحج! إن الأمير لما بلغه كلامكم ومقالتكم في صاحبكم أمرني بالدخول إليه، فأتيته فنظرت إليه، فأمرني أن ألقاكم وأعرِّفكُم أنه حي وأن الذي بلغكم من قتله باطل..!

فصاح كبير مذحج:

ـ أما إذا لم يُقتل فالحمد لله..!

ثم انصرفوا.

١٩

وأرسل مسلم بن عقيل رجلاً من ثقاته اسمه عبداللّه بن حازم ليتحسَّسَ من خبر هانيء. فلما علم ابن حازم أنه ضُرب وحُبس ركب دابته وعاد بالنبأ إلى ابن عقيل. فوجد نسوة من مراد مجتمعات ينتحبن ويندبن وينادين:

ـ ياعبرتاه..! ياثكلاه..!

وكان ابن عقيل قد بايعه أكثر من ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة، وحوله منهم في الدور نحو أربعة آلاف. فأمر ابنَ حازم أن يجمعهم وينادي فيهم بشعارهم، وهو شعار المسلمين يوم بدر.

فخرج ابن حازم، ونادى:

ـ يامنصور أمِت..!

فتنادى أهل الكوفة، واجتمع إليه أربعة آلاف شخص.

وتعجَّل ابن عقيل الخروج قبل الأجل الذي بينه وبين الناس خشية أن يؤخذ غيلةً، وحتى لايخلى بين ابن زياد ومضيفه هانيء بن عروة.

فعقد لعبداللّه بن عزير الكندي على ربع كندة، وقال له:

ـ سِر أمامي في الخيل.

وعقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على ربع مذحج وأسد، وقال:

ـ انزل في الرجال.
وعقد لأبي ثمامة الصائدي على ربع تميم وهمدان.
وعقد لعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة.
وعبَّأ الميمنة والميسرة، ووقف هو في القلب، ثم سار نحو قصر الإمارة.
فأخذ الناس يتداعون ويجتمعون إليه.
فلما بلغ ابن زياد الخبر، تَحَرَّزَ في القصر وأغلق أبوابه وليس معه إلا ثلاثون رجلاً من الشُرَط، وعشرون من الأشراف، وأهله ومواليه.
وأحاط ابن عقيل بالقصر وحاصره. وامتلأ المسجد بالناس، ومازالوا يجتمعون حتى المساء ويلحّون على ابن زياد أن يُطلق سراح هانيء.
فضاق ابن زياد ذرعاً بعد أن أُحيطَ به، لكنه تأبّى أن يعيد ابن عروة تحت الضغط والتهديد، وأعمل ذهنه في البحث عن حيلة.
ودعا ابن زياد كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج في من أطاعه من مذحج، فيطوف بالكوفة ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم الحرب ويحذرهم عقوبة السلطان. وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج في من أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع راية الأمان لمن جاءه من الناس. وفعل مثل ذلك مع القعقاع بن شور الذهلي، وشبث بن ربعي التميمي، وحجار بن أبجر العجلي، وشمر بن ذي الجوشن الضبابي.
وأبقى وجوه الناس عنده ليدافعوا عنه إذا اقتضت الضرورة.
ووقف محمد بن الأشعث عند منازل بني عمارة يُخوِّفُ القوم

وينذرهم ويمنعهم عن اللحاق بابن عقيل.

فبعث إليه ابن عقيل عبدالرحمن بن شريح الشيباني ليتصدى له. فتقهقر ابن الأشعث وتحولِ عن مكانه. بينما كان ابن شهاب والقعقاع وشمر وابن ربعي يُرهبون الناس تارةً ويُرغّبونهم أخرى، ويَرُدُّوهم عن الانضمام لابن عقيل. فاجتمع إليهم كثير من قومهم، فرجعوا بهم إلى قصر الإمارة، ودخلوا من قِبل دار الروميين.

وقال كثير بن شهاب لابن زياد:

ـ أصلح اللّه الأمير..! إن معك في القصر الآن نفراً كثيراً فاخرج بنا إليهم.

فرفض ابن زياد، وأمر مَن عنده من الأشراف أن يطلُّوا على الناس من شرفات القصر فيُمَنُّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، ويُخَوِّفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأن يوهموهم بوصول الجند من الشام ويُحَذِّروهم من عواقب الخروج عن أمر يزيد بن معاوية.

وكان أهل الكوفة يتوافدون على القصر زرافات ووحداناً وينضمون لابن عقيل حتى كَثُر مَن حوله.

فصعد كثير بن شهاب إلى أعالي القصر، وخطب في الجموع المحتشدة، فقال:

ـ أيها الناس.. الحقوا بأهليكم ولاتعجلوا الشر، ولاتعرضوا أنفسكم للقتل، فان هذه جنود أمير المومنين يزيد قد أقبلت. وقد أعطى الأمير عهداً لئن أقمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيتكم أن يُحرِمَ ذرِّيتكم

العطاء ويُفرِّق مقاتليكم في مغازي الشام، وأن يأخذ البرىء منكم بالسقيم والشاهد بالغائب، حتى لايبقى له بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وَبالَ ما جنت أيديها..!

وتحدَّث غيرُه من الأشراف أيضاً بمثل ما تحدث به.

فلما سمع أهل الكوفة مقالة أشرافهم أصابهم مزيجٌ من الوهن والخوف وضَعُفَت عزيمتهم. فانقلبوا، وأخذوا يتفرَّقون وينصرفون، حتى أن الواحد ليأتي الآخر فيثبِّطه ويقول له:

ـ انصرف فالناس يكفونك..!

أو يطمعه في السلامة فيقول:

ـ غداً يأتيكَ جند الشام، فماذا تصنع بالحرب، ولماذا تجلب الشر على نفسك...؟!

فراح الناس ينسحبون ويرتدون على أعقابهم، ولم يبق مع ابن عقيل سوى خمسمائة..!

وأقبل المساء. فتوجه ابن عقيل إلى المسجد لصلاة المغرب، ونظر حوله فلم يجد غير ثلاثين شخصاً..! فلما أدَّى الصلاة خرج من المسجد إلى أبواب كندة، فلم يكد يبلغها إلا ومعه عشرة فقط..! حتى إذا تجاوز أحد الأبواب وجد نفسه وحيداً ليس معه أحد..!!

فوقف متحيراً لايدري إلى أين يذهب..!

فمضى في أزقة الكوفة حتى انتهى به المسير إلى باب سيِّدة اسمها طوعة أم ولد كانت للأشعث وأعتقها فتزوجها أسيد الحضرمي

فولدت له بلالاً.

وكان بلال قد خرج مع الناس وأمه قائمة تنتظر أوبته. فلما طال بها الإنتظار في الداخل انشغل بالها فخرجت تنتظره لدى الباب عَلَّه يعود أو تتبيّن شيئاً من خبره.

فلم تَكد تفتح الباب حتى وجدت ابن عقيل جالساً وقد أنهكه الإعياء.

فسلَّمَ عليها، وطلب منها ماءً، فسقته.

ثم دخلت إلى دارها.

فلما عادت لتنتظر ولدها وجدت ابن عقيل ما يزال جالساً عند الباب.

فسألته متعجبة:

- ياعبداللّه.. ألم تشرب؟!

فأجابها:

- نعم.

قالت:

- فاذهب إلى أهلك..!

فسكت..!

فأعادت عليه كلامها. فسكت..!

فقالت:

- سبحان اللّه..! ياعبداللّه.. قم عافاك اللّه إلى أهلك فانه لايجدر بك الجلوس على بابي ولاأحلُّه لك..!

فقام ابن عقيل، وقال:

ـ ياأمة اللّه! ليس لي في هذا المصر أهل ولاعشيرة، فهل لك في أجرٍ ومعروف، ولعلّي أكافئك به بعد اليوم..؟

فسألته مدهوشة:

ـ وما ذاك ياعبداللّه..!

قال:

ـ أنا مسلم بن عقيل، كذبني هؤلاء القوم وغَرُّوني..!

فقالت:

ـ أنت مسلم..؟!

قال:

ـ نعم.

فقالت:

ـ ادخل.

وأدخلته طوعة إلى بيت في دارها غير البيت الذي هي فيه.

وفرشت له. ثم جاءته بالعشاء.

فلم يأكل..!

وكان بلال ابنها قد عاد. فلما رأى أمه تكثر الدخول إلى ذلك البيت والخروج منه، رابه الأمر، وقال:

ـ إنه لُيريبني كثرة دخولك إلى هذا البيت وخروجك منه في هذه الليلة ياأماه..! إنّ لك لشأنا..!!

فقالت:

ـ أقبل على شأنك، ولاتسألني عن شيء يابنيّ..!

فقال مُلحّاً:

ـ واللّه لَتُخبريني..!

قالت:

ـ إن الأمر لايعنيك ياولدي..!

فقال وقد ازداد فضوله:

ـ وكيف..؟!

ومازال يلحُّ عليها.

فأقبلت أمه عليه، وقالت:

ـ ألن تخبر أحداً بشيء؟

فأجابها:

ـ بلى.

قالت:

ـ أتقسم باللّه..!

فقال:

ـ أقسم باللّه ألاَّ أُخبر أحداً..!

فنظرت حولها، ثم همست له:

ـ إنه مسلم بن عقيل. كذبه القوم وخذلوه، فوجدته على بابنا، فضيّفته..!

فاضطجع بلال، وسكت..!!

٢٠

طال الأمر على ابن زياد وقد انفَضَّ عن القصر ابن عقيل وأصحابه، ولم يعد يسمع لهم صوتا.

فقال لمن عنده وقد انصرم الليل:

ـ أشرفوا.. فانظروا هل ترون منهم أحدا.

فمضوا، ثم عادوا وأخبروه أنهم لم يروا أحدا.

قال:

ـ فابحثوا في المسجد ربما يكونون قد كمنوا لكم..!

فانطلقوا إلى المسجد وبيدهم المشاعل، وداروا فيه فلم يجدوا أحدا. فأخذوا ينزعون الأخشاب من المسجد ويجولون في الأركان وتحت الظلام حتى فعلوا ذلك في الظلة التي فيها المنبر.

فلمّا لم يعثروا على أحد عادوا إلى ابن زياد وأعلموه بتفرق الناس، فعاوده الاطمئنان.

وكان الفجر قد أوشك.

ففتح ابن زياد السدة التي في المسجد مما يلي القصر، ودخل المسجد قبيل العتمة ومعه أصحابه، فجلسوا حول المنبر، وأمر عمرَ بنَ نافع فنادى:

ـ ألا برئت الذمة من رجل من الشُّرَط أو العرفاء والمناكب أو المقاتلة صلى العتمة إلا في المسجد..!

ولم تمض ساعة حتى امتلأ المسجد بالناس.

فصلى ابن زياد بهم وخلفه الجند يحرسونه، ثم صعد المنبر، وقال:

ـ أما بعد. فإن ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمة اللّه من رجل وجدناه في داره. ومن أتانا به فله عشرة آلاف درهم والمنزلة الرفيعة عند يزيد بن معاوية وله في كل يوم حاجة مقضيّة. فاتقوا اللّه عباد اللّه، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولاتجعلوا على أنفسكم سبيلا..!

ثم نادى ابن زياد صاحبَ الشرطة قائلا:

ـ ياحصين بن نمير..! ثكلتك أمك إن ضاع باب من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به. وقد سَلَّطتُكَ على دور الكوفة، فابعث مراصد على أهل الكوفة ودورهم، وأصبِح غداً واستبرىء الدور، وجُس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل..!

ودخل ابن زياد إلى القصر، وعقد رايةً لعمرو بن حريث وأمَّرَه على الناس.

فلما أصبح الصباح جلس ابن زياد مجلسه المعتاد، وأذِن للناس فدخلوا عليه، وأخذ يتجاذب أطراف الحديث وهو يلوح بقضيب في يده.

وبينما هم على ذلك، دخل عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث، فتوجه إلى أبيه وكان يجلس بجانب ابن زياد، وهمس في أذنه شيئاً.

فمال محمد بن الأشعث على ابن زياد وقال له:
ـ إن ابن عقيل في دار امرأة يقال لها طوعة زوج أسيد الحضرمي. وقد أخبر ولدها إبني عبدالرحمن بذلك.
فابتهج ابن زياد ولكزه بالقضيب في جنبه مازحاً وقال له:
ـ قم.. فأتني به الساعة..!
وبعث معه عبدالله بن العباس السلمي في سبعين رجلاً من قيس حتى أَتوا الدار التي فيها ابن عقيل.
فلما سمع مسلم الأصوات وحوافر الخيل، عَجَّل في دعائه الذي كان مشغولاً به ثم لبس لامته، وقال لطوعة:
ـ قد أديت ما عليك من البر والإحسان وأخذت نصيبك من شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) سيد الإنس والجان.
فقالت طوعة:
ـ أرجو ألا يكون عليك بأس ياسيدي، وأدعو الله أن ينتقم من الظالمين.
فأشرق وجه ابن عقيل وقال لها:
ـ إني رأيت البارحة عمي أمير المؤمنين (عليه السّلام) في المنام فقال لي: أنت معي غداً..!
ثم خرج إلى ساحة الدار شاهراً سيفه.
وإذا بالقوم قد اقتحموا الدار، فقاتلهم حتى أخرجهم منها. فما زالوا يعودون فيشدُّ عليهم ويخرجهم حتى قتل جماعة منهم.

فغافله بكر بن حمران الأحمري، ووجه إليه ضربة على فمه فقطع شفته العليا وأسقط ثناياه.

فعاجله ابن عقيل بضربة على رأسه، وثنّى بأخرى على حبل العاتق كادت تطلع على جوفه.

ثم صعدوا على أسطح الدور وجعلوا يقذفونه بالحجارة ويشعلون النار في القصب ويلقونها عليه.

فخرج مسلم من الدار وانقض عليهم في الزقاق وهم يتفرّقون عنه ثم يعودون للإحاطة به.

فناداه ابن الأشعث:

ـ لك الأمان.. فلاتقتل نفسك..!

فلم يلتفت إليه مسلم، وظل يقاتلهم وهو يرتجز:

أقسمت لا أُقتل إلا حُرا * وإن رأيت الموت شيئا نكرا
كل امرىء يوما يلاقي شرا * أضربكم ولا أخاف ضُرا
أخاف أن أُكذب أو أُغرَّ * أو يخلط البارد سخنا مُرّاً

فصاح ابن الأشعث:

ـ إنك لاتُكذب ولاتُخدع. إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولاضائريك.

فلم يحفل به مسلم واستمر في قتالهم حتى أُثخن بالجراح.

وطعنه رجل من خلفه، فخر إلى الأرض، فاجتمعوا عليه و جردوه من سيفه وأسروه، ثم ساروا به مَحمولا على بغلة وقد كَتَّفوا يديه.

فدمعت عينا مسلم، وقال:

هذا أول الغدر..!

فقال له ابن الأشعث:

- لك الأمان، ولن يكون عليك بأس.

فأجابه مسلم:

- وما هو الرجاء..! إنا للّه وإنا إليه راجعون..!

وبكى.

فقال له ابن العباس السلمي:

- من يطلب مثل الذي تطلب لم يبك إذا نزل به مثل الذي نزل بك..!

فقال مسلم:

- واللّه مالنفسي بكيت. ولكن لأهلي المقبلين عليكم. أبكي للحسين وآل الحسين..!!

ثم التفت إلى ابن الأشعث وقال له بصوت خفيض:

- إني أراك ستعجز عن أماني. فهل تستطيع أن تبعث مِن عندك رجلاً على لساني يخبر الحسين بحالي، فاني لاأراه إلا وقد خرج اليوم أو هو خارجٌ غداً وأهل بيته، ويقول له: إن ابن عقيل يقرئك السلام، وقد بعثني إليك وهو أسيرٌ في أيدي القوم لايرى أنه يُمسي حتى يُقتَل، فارجع بأهل بيتك ولايغررك أهل الكوفة فانهم كذبوك، وليس لمكذوب رأي.

فقال له ابن الأشعث:

ـ واللّه لأفعلنّ، ولأطلبنّ لك الأمان عند ابن زياد.

ثم نادى برجل، وكلمه، وبعثه إلى الحسين (عليه السّلام).

ومضى بابن عقيل إلى قصر الامارة..!

٢١

زحفت جحافل الظلام على مكة المكرمة في محاولة لاطفاء نور اللّه الذي يفيض جلالاً وجمالاً على بيته المعمور.

وحفَّت الملائكة بالبيت الحرام تُسبِّح وتُقدّس لنور النور القدسي الذي لايخبو ولاينطفىء ولايزول.

وحفَّت طيور الحزن على التلال السامقة مرفرفة بأجنحتها وكأنها تلطم صدورها المنطوية على اللوعة والألم الفادح وتندب المصاب العظيم الكائن في لوح المشيئة.

وأزفت ساعة الرحيل..!

وكان السَّحر قد أقبل.

فجمع الحسين (عليه السّلام) ال بيته وشيعته وأصحابه ممن أحبوا الخروج معه.

وارتحل عن أُم القرى ومهبط الوحي والرسالة، وشيّع ببصره الكعبة الشريفة، وقد ودعها الوداع الأخير، وطاف الطواف الأخير، وسعى

نحو قدره الذي لابد منه.

وكان خروجه (عليه السّلام) في يوم التروية. فكان الناس يخرجون إلى مِنَى، وابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) يخرج إلى العراق خشية البطش والفتك..!

ولما علم عبداللّه بن عمر بخروج الحسين (عليه السّلام)، فانه امتطى راحلته وخرج مسرعاً خلفه، فأدركه في بعض منازل الطريق وأخذ بزمام راحلته وقال:

ـ أين تريد يا ابن رسول اللّه..؟

فقال (عليه السّلام):

ـ إلى العراق.

فقال ابن عمر والرجاء في عينيه:

ـ مهلاً.. ارجع إلى حرم جدك..!

فقال (عليه السّلام):

ـ إني مأمور ياعبداللّه، وما أراد اللّه كائن..!

فبكى ابن عمر، وعانق الحسين(عليه السّلام)،وقبل مابين عينيه، وقال:

ـ أستودعك اللّه من قتيل..!

وعاد إلى مكة.

ووصل مكة عمرو بن سعيد الأشدق أمير الحجيج من قِبل يزيد ووالي المدينة المنورة الجديد. وكان وصوله إليها في نفس اليوم الذي خرج فيه الحسين (عليه السّلام).

فلما علم بخروجه، بعث برجاله خلفه وعليهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص. فأسرعوا حتى أدركوه. فاعترضوا طريقه وأمروه بالرجوع.

فأبى الحسين (عليه السّلام).

فتكالبوا عليه ليمسكوا به. وتدافع الفريقان، وتضاربوا بالسياط. حتى إذا امتنع عليهم الحسين (عليه السّلام) وأصحابه امتناعاً شديدا، ومضى، بادروه وقالوا:

- ألا تتقي اللّه ياحسين! تخرج عن أمير المؤمنين يزيد وتفرّق بين الأمة..؟!

ورأى الحسين (عليه السّلام) ما هم فيه من ضلال لاسبيل إلى ردهم عنه. فأجابهم قائلا:

- لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون..!

فرجعوا حانقين وتركوه.

وواصل الحسين (عليه السّلام) طريقه باتجاه الكوفة، وقد أرسل أخاه من الرضاعة عبداللّه بن يقطر لاستقصاء خبر مسلم بن عقيل.

٢٢

وأقبل محمد بن الأشعث بمسلم بن عقيل إلى قصر الإمارة.

فتركه على الباب واستأذن ودخل على ابن زياد وأخبره خبر ابن عقيل، ثم قال:

ـ ولكني أعطيته الأمان.

فأجابه ابن زياد ساخراً:

ـ كأنّا أرسلناك لتؤمِّنَهُ..! إنما أرسلناك لتأتينا به..!

فسكت ابن الأشعث وجلس بعيداً..!

وكان ابن عقيل جالساً لدى باب القصر، وهناك أناسٌ جلوس ينتظرون الإذن بالدخول، وفيهم مسلم بن عمرو الباهلي وعمرو بن حريث، وبجوارهم قُلّة فيها ماءٌ بارد.

فقال ابن عقيل وقد أنهكه القتال وآلمه القيد واشتَدَّ به العطش:

ـ إسقوني من هذا الماء..!

فأجابه الباهلي:

ـ لاتذوق منه قطرةً حتى تذوق الحميم في نار جهنم..!

فسأله مسلم:

ـ من أنت؟!

فقال:

ـ أنا من عرف الحق إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غَشَشتَه، وأطاعه إذ خالفته. أنا مسلم بن عمرو الباهلي.

فقال مسلم:

ـ ثكلتك أمك يا ابن باهلة..! ما أجفاك وأفظّك وأقسى قلبك..! إنك

لأولى بالحميم والخلود في نار جهنم..!!

فلما سمع عمرو بن حريث ذلك، وكانت داره قريبة من القصر، فإنه بعث غلاماً له فأتاه بقُلّة ماء عليها منديل، وصَبَّ له قدحاً، وقال:

- إشرب - !

فنظر إليه مسلم نظرة امتنان، وأخذ القدح ليشرب، فامتلأ القدح دما..!

وفعل ذلك ثلاثا حتى سقطت بعض ثناياه في القدح..!

فردَّهُ ابن عقيل، وقال:

- الحمد لله! لو كان من الرزق المقسوم لشربته!! عندئذ خرج رسول ابن زياد إلى باب القصر، وأمر بادخاله.

فلمّا دخل مسلم على ابن زياد لم يسلم عليه بالإمارة.

فقال له الحارس:

- ألا تُسلِّم على الأمير..؟

فأجابه مسلم:

- إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه..!

فاغتاظ ابن زياد، وانتفخت أوداجه، وأقسم:

- لعمري لتُقتَلنّ..!!

فقال مسلم وقد رأى الشرر يقدح في عينَي ابن زياد:

- كذلك..؟!

قال:

ـ نعم..!

فقال:

فدعني أوصي إلى بعض قومي.

قال:

ـ إفعل.

فنظر مسلم إلى جلساء ابن زياد وقَلَّب فيهم طرفه وبينهم عمر بن سعد، فقال له:

ـ ياعمر.. إن بيني وبينك قرابة، ولي إليك حاجة، وهي سر..!

فامتنع ابن سعد أن يسمع منه وأشاح عنه بوجهه.

فلامه ابن زياد قائلاً:

ـ ولم تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك؟!

فقام معه، وجلسا بحيث يراهما ابن زياد.

فقال مسلم:

ـ إن عليَّ بالكوفة ديناً سبعمائة درهم فاقضها عني، وانظر جثتي فاستوهبها ووارِها، وابعث إلى الحسين مَن يَردّه.

فعاد عمر بن سعد إلى ابن زياد وأخبره بوصية مسلم..!

فقال ابن زياد وقد ملأه التيه والغرور:

ـ لايخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن!

أما مالك فهو لك تصنع به ماشئت. وأما الحسين فإن أرادنا لم نكفَّ عنه. وأما جثته فإننا لن نشفعك فيها..!!

ثم خاطب ابن عقيل مهدِّداً:

ـ قتلني اللّه إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحدٌ في الإسلام..!

فأجابه مسلم غير آبه بتهديده:

ـ أما إنّك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن! وإنك لاتدع سوء القتلة وقُبح المُثلة وخبث السريرة ولؤم الغلبة لأحد أولى بها منك..!

فسبّه ابن زياد قائلاً:

ـ ياعاق، ياشاق..! خرجت على إمامك، وشققت عصا المسلمين وألقحت الفتنة..!

فحاجّهُ مسلم وقال:

ـ كَذبتَ..! إنما شَقَّ عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد..! وأما الفتنة فألقحتَها أنت وأبوك زياد بن عبيد عبد بني علاج من ثقيف. وأنا أرجو أن يرزقني اللّه الشهادة على يد شرّ بريّته..!

فقال ابن زياد:

ـ لقد منّتك نفسك أمراً حال اللّه دونه وجعله لأهله.

فاستنكر مسلم وردَّ عليه ادعاءه قائلا:

ـ ومَن أهلُه يا ابن مرجانة إذا لم نكن نحن أهله؟!

فقال ابن زياد متعنتاً:

ـ أهله أمير المؤمنين يزيد.

فأجابه مسلم:

ـ لقد رضينا باللّه حكماً بيننا وبينكم..!

فاستمر ابن زياد في جداله متسائلاً:

ـ أتظن أنّ لك في الأمر شيئاً..؟!

فأجابه:

ـ والله ما هو الظن، ولكنه اليقين..!

فاستطرد ابن زياد:

ـ ولذلك أتيتَ الناس وهم جميعٌ وأمرهم مُلتئِم ففرَّقتَ كلمتهم وحملت بعضهم على بعض..!

فخطّأه مسلم قائلاً:

ـ كلا..! لستُ لذلك أتيت. ولكنكم أظهرتم المنكر ودفنتم المعروف وتأمَّرتُم على الناس بغير رضا منهم، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر. فأتينا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة، ونحن أهل لذلك.

فلما افتضح أمر ابن زياد، عاود سبّه قائلاً:

ـ وما أنت وذاك يافاسق؟! ألم يكن يُعمل بذلك فيهم إذ أنت تشرب الخمر في المدينة؟!

فاحتج مسلم وقال:

ـ أنا أشرب الخمر..؟! أما والله إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأن أحق الناس بشرب الخمر مني من يلغ في دماء المسلمين، فيقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن وهو يلهو

ويلعب وكأنه لم يصنع شيئا..!!
فغضب ابن زياد وغلى الدم في عروقه، وشتم ابنَ عقيل وشتم عليّاً والحسن والحسين وعقيلا..!! فرد عليه مسلم:
- أنت وأبوك أحق بالشتيمة، فاقض ما أنت قاض ياعدو اللّه..!
فلم يستطع ابن زياد أن يتمالك نفسه أمام صلابة ابن عقيل، ونادى جلاوزته قائلا:
- خذوه فاصعدوا به فوق القصر، واضربوا عنقه ثم أتبعوه جسده..!
فقال مسلم ملمحاً بنسب ابن زياد:
- واللّه لو كان بيني وبينك قرابة ما قتلتني..!!
ففهم ابن زياد مراده، واستدرك:
- سيقتلك من ضربته بالسيف على رأسه..!
ودعا بكر بن حمران الأحمري، وقال له:
- اصعد، فلتكن أنت الذي تضرب عنقه..! فصعد به.
وأخذ ابن عقيل يكبِّر ويستغفر اللّه ويصلي على رسول اللّه واله ويقول:
- اللهم احكم بيننا وبين قوم غَرّونا وكذبونا وخذلونا.
ثم توجه نحو مكة وسلَّمَ على الحسين (عليه السّلام).
فلما وصلا إلى أعلى القصر، دنا منه ابن حمران وقال له متشفّياً:
- ادنُ مني..! الحمد للّه الذي أمكنني وأقادني منك..!
ثم نظر حوله فأحسّ بالذّعر وقد رأى شبحاً أسود شنيء الوجه يقف

حذائه وقد عضّ على إصبعه..!

فوجّه ضربة سريعة وضعيفة لابن عقيل لم تُغن شيئا.

فوبخه مسلم:

- أما ترى في خدش تخدشني إيّاه وفاءً منك أيّها العبد..؟!

فثنّى له بضربة قطع بها عنقه، وألقى رأسه من أعلى القصر وأتبعه بجثته، وأسرع بالهبوط وقد فزع فزعاً شديدا.

فلما رآه ابن زياد على هذه الحال سأله:

- هل نفذت ما أمرتك به..؟

فأجاب خائفاً:

- بلى أيها الأمير.

فقال:

- وما يفزعك؟

قال:

- رأيت ساعة قتله رجلا أسود قبيح الوجه حذائي عاضاً على إصبعه.

فضحك ابن زياد وصرفه قائلاً:

- لعلك دُهشت..!!

حينئذ نهض محمد بن الأشعث وقال مخاطباً ابن زياد:

- لقد قتلت ابن عقيل وقد آمنتهُ، وأنا الذي سقت إليك هانيء بن عروة وأنشدك اللّه لَمَا وهبتَه لي، فقد عرفت منزلته في المصر وبيته في العشيرة، وإني أكره عداوة المصر وأهله..!

فوعده ابن زياد مُطَمئناً وقال:

ـ سأفعل.

ولكنه ما فتىء أن انقلب! فأمر بهانىء في الحال، وقال:

ـ أخرجوه إلى السوق فاضربوا عنقه..!

فخرجوا به إلى سوقٍ للغنم وهو مكتوف، فأخذ هانىء ينادي:

ـ وامذحجاه..! ولامذحج لي اليوم..! أين مذحج..؟!

فلما وجد أن أحداً لاينصره جذب يده فنزعها من الوثاق، وصاح:

ـ أما من عصا أو عظمٍ أو حجارة أدافع بها عن نفسي..؟!

فوثبوا إليه وأعادوا شدّ وثاقه.

حتى إذا وصلوا إلى السوق والناس حولهم مجتمعون، قال له أحد زبانية ابن زياد، واسمه رشيد وكان عبداً تركيا مملوكاً لابن زياد:

ـ امدد عنقك..!

فقال هانىء بعزة الشرفاء:

ـ ما أنا بها سخيّ..! وما أنا بمعينكم على نفسي..!

فضربه العبد بالسيف فلم يصنع به شيئا..! ثم ضربه أخرى ففصل رأسه عن جسده..!!

وبعد ذلك أمر ابن زياد برجال كانوا قد خرجوا لنصرة ابن عقيل، فضُربت أعناقهم.

فبينما هو في مجلسه مايزال، دخل عليه رجاله بعبد اللّه بن يقطر رسول الحسين (عليه السّلام) الذي كان قد بَعثه للوقوف على خبر

ابن عقيل.

فقال له ابن زياد:

ـ اصعد الآن فوق القصر، والعن الكذاب ابن الكذاب، ثم انزل حتى أرى فيك رأيي.

فصعد ابن يقطر، ونادى من أعلى القصر والناس محتشدون:

ـ أيها الناس..! إن الحسين قادم، فاستقبلوه ولاتخذلوه، فان الأمر واللّه له وليس ليزيد..!

ثم نظر إلى السماء ورفع يديه وقال:

ـ اللهم العن الكذاب عبيداللّه بن زياد وأباه الكذاب زياد بن أبيه..!

فلما علم ابن زياد بالأمر، أمر به فأُلقي من أعالي القصر، فتهشّمت عظامه وما زال به رمق. فأتاه رجل فأجهز عليه وذبحه..!

ثم أمر ابن زياد بجثتي مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة فسحبتا في الأسواق، وصُلِبَتا بالكنّاسة منكوستين. ثم بعث برأسيهما إلى يزيد بن معاوية مع الزبير بن الأروح التميمي وابن أبي حية الهمداني، وأرسل معهما كتاباً إلى يزيد يخبره بما حدث.

ففرح يزيد، وكتب إلى ابن زياد قائلاً:

«أما بعد. فانك لم تَعدُ أن كنتَ كما أحب، عملت عمل الحازم، وصُلت صولة الشجاع الرابط الجأش. فقد أغنيتَ وكفيت وصدقت ظني بك ورأيي فيك. وإنه قد بلغني أن حسيناً سار إلى الكوفة، وقد ابتُلي به زمانك من بين الأزمان وبلدك من بين البلدان، وابتُليتَ به من

بين العُمّال. وعندها تُعتق أو تعود عبدا. فضع المناظر والمسالح، واحترس، واحبس على الظنّة، وخذ على التهمة، واكتب إليّ في كل ما يحدث».

ثم أمر يزيد برأسَي مسلم وهانيء فنصبهما في درب من دروب دمشق..!!

٢٣

وكان مع ميثم التمار في الحبس عدد من أهل الكوفة الذين قبض عليهم عبيداللّه بن زياد بسبب مشايعتهم للحسين (عليه السّلام) ونصرتهم لمسلم بن عقيل وفيهم المختار الثقفي الذي نزل ابن عقيل في داره عند قدومه الكوفة، وعبدالأعلى الكلبي الذي كان قد خرج لنصرة ابن عقيل لمّا حوصر ابن زياد في القصر فقبض عليه كثير بن شهاب وأرسله إلى ابن زياد، وعمارة الأزدي الذي كان أيضاً يناصر ابن عقيل.

فأقاموا في المحبس يتعبَّدون ويتوجهون إلى اللّه بالدعاء.

وتحدث إليهم ميثم التمار ذات يوم، فقال للمختار:

ـ إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين (عليه السّلام)، فتَقتُلُ هذا الجبار الذي نحن في حبسه وتطأ بقدمك على جبهته وخده.

فبينما هم قيام إذ دخل الحرس فأوثقوا عبدالأعلى الكلبي وجروه إلى

مجلس ابن زياد.
فقال له ابن زياد:
ـ أخبرني بأمرك.
فأجابه عبدالأعلى:
ـ أصلحك اللّه. خرجت لأنظر ما يصنع الناس..! فأخذني كثير بن شهاب.
فقال ابن زياد:
ـ فعليك بالأيمان المغلظة إن كان أخرجك إلا مازعمت.
قال:
ـ لاأقسم..!
فأمر ابن زياد جلاوزته، فانطلقوا به إلى جبانة السبع، فضربوا عنقه.
ثم عاد الحرس فأوثقوا عمارة الأزدي، وأدخلوه على ابن زياد. فسأله:
ـ ممّن أنت..؟
فأجاب:
ـ من الأزد.
فقال ابن زياد:
ـ انطلقوا به إلى قومه واضربوا عنقه فيهم.
ثم ما لبث الحرس أن رجعوا فأوثقوا المختار ومضوا به إلى ابن زياد.
فقال له:
ـ شهد لك عمرو بن حريث بأنك لم تنضم إلى ابن عقيل، بل أقبلت

ونزلت تحت راية ابن حريث وبتّ معه وأصبحت. ولولا شهادته لضربنا عنقك..! فماذا تقول في إيوائك لابن عقيل؟

فقال المختار:

ـ لقد طلب الرجل جواري، فأجرته وأنزلته في داري.

فقال ابن زياد:

ـ فلتُضرب عنقك..!

وأشار إلى الجلاوزة فجرُّوهُ إلى ساحة القصر ليضربوا عنقه.

فلما خرجوا به طلع البريد بكتاب من يزيد بن معاوية إلى عبيداللّه بن زياد يأمره بتخلية سبيل المختار..!

وذلك لأن أخت المختار كانت تحت عبداللّه بن عمر، فلما أذعن ابن عمر بالبيعة ليزيد، تشفّع عنده للمختار، فأمضى شفاعته.

فأمر ابن زياد أحد رجاله فأسرع خلف الجلاوزة، فلحق بهم في ساحة القصر وقد أوقفوا المختار لضرب عنقه، فأمرهم بأمر ابن زياد، فأخلوا سبيله..!

وما هي إلاّ ساعة حتى جاء الحراس فأوثقوا ميثم التمار وساقوه إلى ابن زياد. حتى إذا أوقف بين يديه ابتدره ابن زياد قائلاً:

ـ أيها الأعجمي! أين ربك..!

وكان ميثم فارسياً قد أُسر في إحدى غزوات الفتح الاسلامي لبلاد فارس، فأسلم وحُسن إسلامه. وكان مولى لبني أسد فاشتراه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) وأعتقه وعلّمَهُ وخصّهُ

بالكثير من العلوم الغيبية ولاسيما علوم التأويل والبلايا والمنايا والإخبار عن المستقبل والحديث المكنون.

فأجابه ميثم:

ـ بالمرصاد لكل ظالم وأنت أحد الظلمة..!

فُبهت ابن زياد، وقال معلّقا:

ـ إنك على عجمتك لتبلغ الذي تريد، فمن أين لك بهذه الفصاحة ـ ؟!

قال:

ـ علّمنيها أبو تراب..!

فقال:

ـ وقد بلغني اختصاصه لك..!

قال:

ـ قد كان بعض ذلك.

فقال ابن زياد حانقاً:

ـ لتبرأنّ من عليّ وتذكرنّ مساوئه وتتولى عثمان وتذكرنّ محاسنه أو لأقطعنّ يديك ورجليك وأصلبنّك..!

فخالفه ميثم وقال:

ـ واللّه لا أفعل أبداً.. فافعل مابدا لك. ولقد عرفت الموضع الذي أُصلب فيه وأين هو من الكوفة..!

فاستبدّ العناد بابن زياد وقال:

- واللّه لأخالفنّ صاحبك..!

ثم أشار إلى جلاوزته وقال لهم وقد طار صوابه:

- خذوه فاصلبوه في الرحبة في الكناسة - !

فمضوا به وهو يتعثر في وثاقه، فمروا به على رجل في الطريق، فقال لميثم:

- ما كان أغناك عن هذا..!!

فتبسَّمَ ميثم وقال وهو يومىء إلى مكان النخلة:

- لها خُلِقتُ، ولي غُذّيت..!

فلما وصلوا به إلى رحبة الصيارفة التي تطل عليها دار عمرو بن حريث، أرادوا صلبه، فلم يجدوا شجرة أو نخلة يصلبوه عليها. فوقعت أبصارهم على رُبع قصير من جذع نخلة، فأتوا به وأقاموه، وصلبوا ميثم عليه، ووقفوا يحرسونه!

وكانت النخلة التي أُنبىء ميثم التمار أنه سيُصلب عليها نابتة في هذه الساحة، وكان ميثم كثيرا ما يأتيها ويصلي عندها ويقول: بوركتِ من نخلة.. لك خُلقتُ ولي غُذيتِ..! يانخلة.. ماغذيتُ إلا لكِ، وما غذيتِ إلاّ لي..!!

ومازال ميثم يتعاهدها ويعتني بها، حتى دخل الكوفةَ عبيدُاللّه بن زياد وتعلّق علمهُ بالنخلة التي في الكناسة، فتخرَّقَ وتطيّر من ذلك، فأمر بقطعها..! فلما قُطعت اشتراها رجلٌ من النجّارين، فشقَّها أربع قطع وتركها في الرحبة.

فأتى ميثم بمسمار من حديد ونقش عليه اسمه واسم أبيه وأمر ابنه صالحاً أن يذهب بالمسمار ويدقه في أقصر الجذوع الأربعة. فكان هذا الجذع هو الذي صُلب عليه ميثم..!!

فلما صلبوه على الجذع صاح بأعلى صوته:

ـ أيها الناس..! من أراد منكم أن يسمع الحديث المكنون عن عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام) قبل أن أُقتل، فليُقبل. فواللّه لأخبرنكم بعلم ما يكون إلى أن تقوم الساعة وما يكون من الفتن والعجائب..!

فاجتمع الناس حوله، فأخذ يحدثهم بفضائل بني هاشم ومخازي بني أمية..!

وجاء عمرو بن حريث يريد داره، فرأى الناس مجتمعين في الرحبة، فقال متسائلاً:

ـ ما هذه الجماعة..؟

فأجابوه:

ـ ميثم التمار يُحَدِّثُ عن علي بن أبي طالب.

فمضى إليه واقترب منه وقال:

ـ يا ميثم.. لقد كنتَ تلقاني فتقول: إني مجاورك فأحسن جواري.. وأنا لاأفهم ماتريد..!

فعلّق ميثم:

ـ وكنت تسألني: أتريد أن تشتري دار ابن مسعود أم دار ابن حكيم..!

فقال ابن حريث:

ـ هو ذاك.

فتابع ميثم:

ـ فهآنذا قد جاورتك..!

فتعجب عمرو بن حريث، ثم تركه وعاد إلى داره، فأمر جاريته أن تأتي ميثم التمار فتكنس تحت خشبته، وترش المكان بالماء، وتجمر بالمجمرة تحته.

وظل ميثم على هذه الحال. فلما وجد ابن حريث أنه لايكف عن الحديث بمناقب الهاشميين ومفاسد الأمويين، فانه انطلق إلى ابن زياد وحَرَّضه قائلاً:

ـ لقد فضحكم هذا العبد..!

فبعث ابن زياد من ألجمه.

فكان أول خلق اللّه أُلجم في الإسلام..!

ولكن ميثم استمر يحدث بحديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) عن الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، ويفضح بني أمية رغم لجامه..!

فعاد ابن حريث إلى ابن زياد وقال:

ـ أيها الأمير..! ابعث إلى هذا من يقطع لسانه، فلست آمن أن تتغير عليك قلوب الناس فيخرجوا عليك..!

فنادى ابن زياد أحد حراسه وقال له:

ـ اذهب واقطع لسانه..!

فأتاه الحرسيّ وقال له:

ـياميثم ـ قل ماشئت فقد أمرني الأمير أن أقطع لسانك.

فقال ميثم:

ـ زعم ابن مرجانة أن يُكذِّبني ويكذِّب مولاي ويخالف حديث الرسول (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) عن جبريل (عليه السّلام) عن اللّه (عزّوجلّ). هاكَ لساني..!

فقطع الحرسيُّ لسانه..!!

فلما كان اليوم الثاني ابتدر منخراه وفمه دماً عبيطاً عند غروب الشمس، فخضب لحيته بالدماء.

فاذا كان اليوم الثالث من صلبه، أمر ابن زياد بقتله. فجاءه رجل وأشار إليه بالحربة وهو يقول:

ـ واللّه ما علمتك إلاّ قوّاما..!

ثم طعنه في خاصرته..!

فأخذ ميثم يكبِّر ويصلي على النبي وآله حتى فاضت روحه الزكية ورجعت نفسه المطمئنة الى ربها راضية مرضيّة.

وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من ذي الحجة قبل قدوم الحسين (عليه السّلام) إلى العراق بعشرة أيام.

فلما علم الشيعة بقتل ميثم التمار، اجتمع سبعة من التمارين وتواعدوا على دفنه. فجاءوا إليه ليلاً والحرس يحرسونه وقد أوقدوا النيران.

فحالت النار بينهم وبين الحرس، فاحتملوه بخشبته حتى انتهوا به إلى فيض ماء في مراد، فدفنوا جثته ورموا الخشبة في الخراب في مراد.
وعندما علم ابن زياد بما حدث بعث بالخيل في الصباح.
فلم تجد شيئا..!!

٢٤

ومضى موكب الأحزان يتقدمه الحسين (عليه السّلام) مبتعداً عن مكة المكرمة.
فما نزل منزلاً ولاارتحل منه إلا ذَكَرَ يحيى بن زكريا (عليهما السّلام) وقتله. وقال لولده علي بن الحسين (عليهما السّلام):
ـ إنّ من هوان الدنيا على اللّه أن رأس يحيى بن زكريا (عليهما السّلام) أُهدي إلى بَغيّ من بغايا بني إسرائيل..!
فلما نأى عن مكة وقد باتت خلفه حزينة وراحت تشرئب حانية عليه من بعيد تغمره بعبقها الرسالي وألطافها الإلهية، ظهرت له أفواجُ من الملائكة المسومين وفي أيديهم الحراب على نجب من الجنة..!
فسلموا عليه، وقالوا:
ـ ياحجة اللّه على خلقه بعد جده وأبيه وأخيه، إن اللّه (عزّوجلّ) أمدّ جدّك رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) بنا في مواطن كثيرة، وإن اللّه أمدّك بنا..!

فأجابهم (عليه السّلام):
- الموعد حفرتي وبقعتي كربلاء التي أستشهد فيها، فأتوني عندها عندما ألقى اللّه.
قالوا:
- ياحجة اللّه..! إن اللّه أمرنا أن نسمع لك ونطيع، فهل تخشى من عدو يلقاك فنكون معك؟
فقال:
- لاسبيل لهم عليّ ولايلقوني بكريهة، أو أصل إلى بقعتي.
فسلّموا عليه وانصرفوا.
فلما قطع شوطاً آخر من الطريق، أتته أفواجٌ من مؤمني الجن، فقالوا:
- يامولانا..! نحن شيعتك وأنصارك، فمرنا بما تشاء. فلو أمرتنا بقتل كلّ عدوٍ لك وأنت بمكانك لكفيناك ذلك..!
فقال لهم (عليه السّلام):
- جزاكم اللّه خيرا. أما قرأتم كتاب اللّه المنزل على جدي رسول اللّه في قوله تعالى: أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيَّدة.
وقوله تعالى: قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم..!
فاذا أقمت في مكاني فبماذا يُمتحن الخلق؟ ومن ذا يكون ساكن حُفرتي وقد اختارها اللّه تعالى لي يوم دحي الأرض وجعلها معقلاً

لشيعتنا ومحبينا تُقبل بها أعمالهم وصلواتهم ويجاب دعاؤهم وتسكن إليها شيعتنا فتكون أماناً لهم في الدنيا والآخرة..؟!

قالوا:

- فبماذا تأمرنا يا ابن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)..؟

فقال:

- تحضرون يوم عاشوراء حين أُقتل ولايبقى بعدي مطلوب من أهلي واخواني ويُسار برأسي إلى يزيد بن معاوية..!

قالوا:

- واللّه ياحبيب اللّه وابن حبيبه لولا أنّ أمرك طاعة وأنه لايجوز لنا مخالفتك، لقتلنا جميع أعدائك قبل أن يصلوا إليك..!

فقال (عليه السّلام):

- نحن واللّه أقدر عليهم. ولكن ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيَّ عن بيّنة..!

فألقوا عليه السّلام وانصرفوا عنه مودعين.

ثم سار الحسين (عليه السّلام) حتى مر بالتنعيم، فلقي بها عِيراً قد بعث بها عامل اليمن إلى يزيد بن معاوية وعليها الورس والحلل. فلما علموا بأمر الحسين (عليه السّلام) أراد بعضهم الانصراف معه. فقال لهم (عليه السّلام):

- من أراد أن يمضي معنا أحسنّا صحبته. ومن أحب الفراق فله ذلك.

فمضى معه قوم، وامتنع آخرون. وأخذ كل منهم حقه وكراءه.

ثم أتى (عليه السّلام) منطقة الصفاح. فلقيه الفرزدق الشاعر وقد جاء يحجّ بأمه وهو يسوق بَعيرَها.

فسأل الفرزدق رجلاً:

ـ لمن هذا القطار..؟

فقال:

ـ للحسين بن علي (عليهما السّلام).

فأقبل الفرزدق وسلم على الحسين (عليه السّلام)، وقال:

ـ أعطاك اللّه سؤلك وأمَّلَكَ فيما تحب، بأبي أنت وأمي يا ابن رسول اللّه ما أعجلك عن الحج..؟

فأجابه (عليه السّلام):

ـ لو لم أعجل لأُخِذت. أخبرني عن الناس خلفك.

فقال الفرزدق:

ـ على الخبير وقعت..! قلوبهم معك، وأسيافهم عليك! والقضاء ينزل من السماء واللّه يفعل ما يشاء.

فقال الحسين (عليه السّلام):

ـ صدقت. للّه الأمر من قبلُ ومن بعدُ، وكل يوم ربنا في شأن. إن نزل القضاء بما نحب فنحمد اللّه على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر. وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته.

ثم حَرَّكَ الحسين (عليه السّلام) راحلته قائلاً:

ـ السلام عليك.

وافترقا.

ومضى ركب الحسين (عليه السّلام)، حتى بلغ منطقة الحاجز.

٢٥

ولما بلغ عبيداللّه بن زياد خروج الحسين (عليه السّلام) من مكة إلى الكوفة، فانه بعث الحصين بن نمير صاحب الشرطة حتى نزل القادسية، ونظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان، وما بين القادسية إلى القطقطانة، وإلى جبل لعلع، حتى سدّوا الطريق الرئيسية وقطعوا سائر الطرق.

فعثر رجال الحصين ذات يوم على قيس بن مُسَهَّر الصيداوي. وكان الحسين (عليه السّلام) قد أرسله إلى جماعة من أهل الكوفة ومعه كتاب يخبرهم فيه بأنه قد خرج من مكة وأنه قادم عليهم إن شاء اللّه تعالى.

فساقه الرجال إلى الحصين، فأراد أن يفتشه.

فأخرج قيس الكتاب وخرقه حتى بات لايُقرأ.

فحمله الحصين إلى ابن زياد، وكان بالمسجد، وأخبره بما فعل بالكتاب.

فقال له ابن زياد:

ـ من أنت؟
فقال قيس:
ـ رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه الحسين (عليهما السّلام).
فسأله ابن زياد:
ـ فلماذا خرقت الكتاب؟
فأجاب قيس:
ـ حتى لاتعلم مافيه..!
فقال:
ـ وممّن الكتاب، وإلى من؟
فأجابه:
ـ من الحسين (عليه السّلام) إلى جماعة من أهل الكوفة.
قال:
ـ فمن هم..؟
فقال:
ـ لاأعرف أسماءهم..!
فغضب ابن زياد وقال له:
ـ واللّه لاتفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم، أو تصعد المنبر فتسبَّ الحسين بن علي وأباه وأخاه..!
فقال قيس:

ـ أما القوم فلاأخبرك بأسمائهم. وأما سبّ الحسين وأبيه وأخيه فأفعل.
فقال ابن زياد:
ـ فاصعد المنبر، وسبّ الكذّاب بن الكذاب الحسين بن عليّ..!!
فصعد قيس، وقال:
ـ الحمد للّه. والصلاة والسلام على رسول اللّه وآله الهداة المعصومين، ولاسيما فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب وولديهما الحسن والحسين فهم أصحاب الكساء الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. اللهم فالعن الكذاب ابن الكذاب عبيداللّه بن زياد وأباه وعتاة بني أمية ومن آزرهم ونصرهم..! أيها الناس، إن هذا الحسين بن علي خير خلق اللّه ابن فاطمة بنت رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، وأنا رسوله إليكم، وقد خلّفته بالحاجز فأجيبوه..!
فارتفعت الهمهمة بالمسجد، واستشاط ابن زياد غضباً، فأمر به فأُلقي من أعالي القصر وفاضت روحه إلى بارئها..!!

٢٦

وانتهى الحسين (عليه السّلام) إلى ماءٍ من مياه العرب، فاذا عليه عبداللّه بن مطيع العدوي وهو نازل به. فلما رأى الحسين (عليه السّلام) قام إليه وقال: ـ
بأبي أنت وأمي يا ابن رسول اللّه ما أقدَمَك؟!

واحتمله فأنزله عن فرسه.
فأجابه (عليه السّلام):
- كان من موت معاوية ما قد بلغك، فكتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم.
فقال ابن مطيع:
- أذكّرك اللّه يا ابن رسول اللّه وحرمة الاسلام أن تُنتهك! أنشدك اللّه في حرمة رسول اللّه وحرمة الإسلام وحرمة العرب. فواللّه لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك! ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً أبدا. فلاتفعل، ولاتأت الكوفة، ولاتعرض نفسك لبني أمية..!
فقال الحسين (عليه السّلام):
- إنه أمر اللّه، وكان أمر اللّه قَدَراً مَقدورا.
ثم واصل الحسين (عليه السّلام) طريقه.
فجمعه الطريق برجل عثماني عائد من مكة هو زهير بن القين البجلي ومعه جماعة من قومه.
فكره زهير أن يسير مع الحسين (عليه السّلام) أو ينزل معه في منزل واحد. وكان إذا سار الحسين (عليه السّلام) تخلّف زهير، وإذا نزل تَقَدَّمَ..!
فنزلوا يوماً في منزل واحد حتى لم يكن هناك بُدٌّ من الإفتراق.
فنزل الحسين (عليه السّلام) في جانب، وزهير في جانب آخر.

فبينما هم جلوس على الغداء عند الظهيرة إذ أقبل رسولٌ من عند الحسين (عليه السّلام)، فسلّم ثم دخل. وقال:

- يازهير إن أبا عبداللّه الحسين بعثني إليك لتأتيه.

فطرحوا ما في أيديهم وصمتوا كأن على رؤوسهم الطير..!

فخاطبت زهيراً امرأتُهُ وقالت:

- أيبعث إليك ابن رسول اللّه ثم لاتأتيه..؟! فلو أتيته وسمعت من كلامه..!

فأتاه زهير على كره..!

وبقي عنده ساعة.

ثم مالبت أن عاد مستبشراً مشرق الوجه، وقال لأصحابه:

- إنني سألتحق بالحسين، فمن أحب منكم أن يتبعني، وإلا فانه آخر العهد..!

فتعجّبوا، وقالوا:

- ما وراءك..؟!

فقال زهير:

- سأحدثكم حديثاً..! إنّا غزونا بلنجر، وهي بلدة من بلاد الخزر، ففتح اللّه علينا وأصبنا غنائم، ففرحنا.

قالوا:

- نعم. ثم ماذا..؟

قال:

ـ فقال لنا سلمان الفارسي: إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم إلى جوارهم منكم بما أصبتم من الغنائم..!

ثم توجه إلى امرأته وقال لها:

ـ الحقي بأهلك! فاني لاأحب أن يصيبك من سببي إلاّ خيرا..!

ثم استودعهم اللّه، ولزم الحسينَ (عليه السّلام).

ونزل الحسين (عليه السّلام) الخزيمية، فجاءته أخته زينب (عليها السّلام) في الصباح وقالت:

ـ يا أخي..! ألا أخبرك بشيء سمعته البارحة؟

قال:

ـ وما ذاك..؟

قالت:

ـ سمعت في الليل هاتفاً يقول:

ألا يا عين فاحتفلي بجهدِ
ومن يبكي على الشهداء بعدي

على قوم تسوقهم المنايا
بمقدار إلى إنجاز وَعدِ

فقال لها (عليه السّلام):

ـ ياأختاه.. كل الذي قُضي فهو كائن..!

ثم ارتحل (عليه السّلام) حتى نزل الثعلبية في المساء.

فلما أصبح جاءه رجل من أهل الكوفة اسمه أبو هرة الأسدي، فسلّم

عليه وقال:

- يابن رسول اللّه - ما الذي أخرجك عن حرم اللّه وحرم جدك رسول اللّه..؟!

فأجابه (عليه السّلام):

- ويحك يا أبا هرة! إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت، وشتموا أهلي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت! وأيم اللّه لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنَّهم اللّه ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، وليُسَلِّطَنَ اللّه عليهم من يسقيهم كأس الهوان..!

فدهش الرجل ووقف متعجبا..!

ثم واصل الركب الحسيني مسيرته الخالدة..!

٢٧

انتهت مناسك الحج، ورحلت القوافل عن مكة، وأخذ الحجيج يعودون من حيث جاءوا.

وكان من بين الناس رجلان من أسد، هما: عبداللّه بن سليم، والمنذر بن المشمعل. فأسرعا باللحاق بالحسين (عليه السّلام) لينظرا ما يكون من أمره وشأنه. وأقبلا بناقتيهما حتى بلغا منطقة اسمها زرود على طريق الكوفة بين الخزيمية والثعلبية. فأبصرا برجلٍ قد عدل عن الطريق وقد جاء من ناحية الكوفة. فلحقا به ليسألاه إن كان لديه خبر من

الكوفة. فلما انتهيا إليه سلَّما عليه، وقالا له:

ـ مَن الرجل..؟

فأجاب:

ـ أسدي.

فقالا:

ـ ونحن أسديان، فمن أنت..؟

قال:

فانتسبا لي.

ـ فلما انتسبا له قال:

ـ أنا بكير بن مثعبة.

فقالا:

ـ أخبرنا عن الناس وراءك.

فقال:

ـ نعم. لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة، فرأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق.

فشكراه وانصرفا.

وما زال الرجلان حتى لحقا بالحسين (عليه السّلام) في الثعلبية، وكان المساء قد أقبل فنزل بها الحسين (عليه السّلام).

فجاءا إليه وسلّما، وقالا:

ـ يرحمك الله..!إن عندناخبرا.فان شئت حدثناعلانيةوإن شئت سرا.

فنظر الحسين (عليه السّلام) إلى أصحابه وقال:

ـ ما دون هؤلاء سر..!

فقالا:

ـ لقد لقينا رجلاً قادماً من الكوفة قد حاد عن الطريق فاستبرأنا خبره، فحدثنا بمقتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة.

فاسترجع الحسين (عليه السّلام) وترحَّم عليهما مرارا. وضج بنو عقيل بالبكاء.

فقالا له:

ـ ننشدك اللّه في نفسك وأهل بيتك ألا انصرفت من مكانك هذا، فانه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولاشيعة، بل نتخوف أن يكونوا عليك.

فنظر الحسين (عليه السّلام) إلى بني عقيل وقال:

ـ ما ترون، وهذا مسلم قد قُتل..؟!

فقالوا:

ـ واللّه لانرجع حتى نصيب حقنا أو نذوق ما ذاق..!

فقال (عليه السّلام):

ـ لاخير في العيش بعد هؤلاء..!

فاجتمع إليه أصحابه، وقال له أحدهم:

ـ ما أنت مثل مسلم. ولو قدمت إلى الكوفة لكان الناس إليك أسرع.

فسكت الحسين (عليه السّلام).

وأخذت النسوة يبكين ويندبن ابن عقيل.

فلما أقبل السَّحَر قال الحسين (عليه السّلام) لفتيانه:
ـ استقوا وأكثروا من الماء.
ثم ارتحلوا حتى انتهوا إلى زبالة وهي منطقة تقع على الطريق قبل الشقوق للقادم من الكوفة إلى مكة.
فلم يكد ينزل الحسين (عليه السّلام) بالمكان، حتى أتاه خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبدالله بن يقطر.
فحزن الحسين (عليه السّلام)، وجمع من كانوا معه وقال:
ـ لقد خذلتنا شيعتنا. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف، ليس عليه مِنّا ذمام.
فتفرق الناس عنه يميناً وشمالا حتى بقي في أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة ونفر يسير ممَّن انضموا إليه. وكان قد اجتمع إليه مدة مقامه بمكة نفرٌ من أهل الحجاز ونفر من أهل البصرة.
وإنما فعل الحسين (عليه السّلام) ذلك لعلمه بأن أكثر من اتبعوه إنما اتبعوه ظنّاً منهم أنه يُقدم بلداً قد استقامت له طاعة أهله. فكره أن يسيروا معه إلا وهم على علم بما يقدمون عليه، وقدعلم أنه إذاأذن لهم بالانصراف لم يصحبه إلا من يريد مواساته على الموت. وقد كان..!!

٢٨

ومكثَ الحسين (عليه السّلام) في زبالة، حتى إذا كان السَّحَر

أمر أصحابه فاستقوا من الماء وأكثروا، ثم سار بالقافلة حتى نزل ببطن العقبة.

فلقيه شيخ من بني عكرمة يقال له عمرو بن لوذان، فسأله:

ـ أين تريد يا أبا عبداللّه..؟

فقال (عليه السّلام):

ـ الكوفة.

فقال الشيخ:

ـ أنشدك اللّه لما انصرفت. فواللّه ما تُقدم إلا على الأسِنَّة وحَدِّ السيوف. وإن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطّأوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأيا..! فأما على هذه الحال فلا أري لك أن تفعل.

فقال (عليه السّلام):

ـ ليس يخفى علَيَّ الرأي ياشيخ. ولكن اللّه تعالى لايُغلب على أمره. واللّه لايَدَعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي. فاذا فعلوا سَلَّطَ اللّه عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل فرق الأمم..!

ثم واصل الحسين (عليه السّلام) سيره حتى نزل منطقة شراف. فلما كان السَّحَر أمر فتيانه فاستقوا من الماء وأكثروا. وغادر المنطقة وتابع المسير حتى انتصف النهار.

فبينما هو يسير إذ قال رجل من أصحابه:

ـ اللّه أكبر..!

فقال له (عليه السّلام):

ـ اللّه أكبر. لم كبّرت..؟

فأجابه:

ـ رأيتُ النخل..!

فقال الأسديان:

ـ إن هذا المكان ما رأينا به نخلةً قط..!

فسألهما (عليه السّلام):

ـ فما تريانه رأى..؟

فأجابا:

ـ نراه رأى هوادي الخيل.

فوافقهما (عليه السّلام) وقال:

ـ وأنا واللّه أرى ذلك. فهل لنا من ملجأ نلجأ إليه فنجعله في ظهورنا ونستقبل القوم بوجه واحد..؟

قالا:

ـ بلى. هذا ذو حُسُم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك. فان سبقت القوم إليه فهو كما تريد.

فأخذ الحسين (عليه السّلام) ذات اليسار وأسرع إلى ذي حُسُم.

فما كان بأسرع من أن طلعت عليهم هوادي الخيل.

فلما رأوا الحسين (عليه السّلام) عدل عن الطريق، فإنهم عدلوا إليه وأقبلوا كأن أسِنّتهم اليعاسيب وكأن راياتهم أجنحة الطير..!

واستَبَقَ الفريقان إلى ذي حُسُم.
فسبق الحسين (عليه السّلام) وأمر بأبنيته وخيامه فضُربت.
ثم أقبل القوم زهاء ألف فارس مع الحر بن يزيد الرياحي التميمي.
فوقف هو وخيله مقابل الحسين (عليه السّلام) في حر الظهيرة، والحسين (عليه السّلام) وأصحابه مُعتَمُّون متقلدوا أسيافهم.
ورأى الحسين (عليه السّلام) أن العطش قد أضرّ بالحر بن يزيد وخيله.
فأشار (عليه السّلام) لفتيانه وقال:
ـ اسقوا القوم ورَشِّفوا الخيل ترشيفا..!
فأقبَلوا يملأون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرَس، فاذا عَبَّ فيها ثلاثاً أر أربعاً أو خمساً عُزلت عنه وسقوا آخَرَ، حتى سقوها عن آخرها..!
وكان مع الحر الرياحي شخص يُدعى علي بن الطعان، وقد جاء في آخر من جاء من أصحابه. فلما رأى الحسين (عليه السّلام) ما به وبراحلته من العطش قال:
ـ أنِخ الرواية.
فلم يفهم الرجل لأن الرواية عنده تعنى السِّقاء..!
فقال (عليه السّلام):
ـ ياابن أخي.. أنخ الجمل.
فأناخه.
فقال له (عليه السّلام):

ـ إشرب.

فجعل كلما شرب سال الماء من السّقاء.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ أخنِث السّقاء..!

فلم يدرِ الرجل كيف يفعل..!

فقام (عليه السّلام) فخنثه بيده.

وشرب الرجل وسقى راحلته..!

ثم التفت الحسين (عليه السّلام) إلى الحر بن يزيد وقال له:

ـ ألنا.. أم علينا..؟!

فأجاب:

ـ بل عليك يا أبا عبدالله..!

فقال (عليه السّلام):

ـ لاحول ولاقوة إلاّ بالله..!

ولم يزل الحر الرياحي موافقاً للحسين (عليه السّلام) حتى حضرت صلاة الظهر.

فأمر الحسين (عليه السّلام) الحَجّاج بن مسروق أن يؤذّنَ للصلاة.

فلما حضرت الإقامة خرج الحسين (عليه السّلام) في إزار ورداء ونعلين. وقام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

ـ أيها الناس..! إنها معذرة إلى الله وإليكم، وإني لم آتكم حتى أتتني كتبكم وقَدِمَت عليّ رُسُلكم أن أقدِم علينا فإنّه ليس لنا إمام لعل الله

يجمعنا بك على الهدى والحق. فان كنتم على ذلك فقد جئتكم فأعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم. وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم.

فسكت القوم ولم يتكلم أحد..!

فقال (عليه السّلام) لمؤذّنه:

ـ أقم الصلاة.

ثم قال (عليه السّلام) للحر:

ـ أتريد أن تصلي بأصحابك..؟

فقال:

ـ لا.. بل تصلي أنت ونصلي بصلاتك.

فصلّى بهم (عليه السّلام)، ثم انصرف مع أصحابه إلى معسكره، ودخل خيمة ضُربت له. وانصرف الحر إلى المكان الذي كان فيه.

واجتمع الحسين (عليه السّلام) إلى جماعة من أصحابه، وعاد الباقون إلى صفهم الذي كانوا فيه فأعادوه، ثم أخذ كل رجل منهم بعنان دابته وجلس في ظلها.

وتكلم الحسين (عليه السّلام) مع أصحابه الذين بقوا معه في الخيمة فقال لهم:

ـ الناس عبيد الدنيا والدين لَعقٌ على ألسنتهم يحوطونَهُ ما درَّت معائشهم، فاذا مُحِّصُوا بالبلاء قَلَّ الديانون..!

ثم حمد اللّه وأثنى عليه وصلّى على النبي وآله وقال:
ـ أما بعد. فانه قد نزل من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيَّرت وتنكرت وأدبر معروفها فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون أن الحق لايُعمل به وأن الباطل لايتناهى عنه..؟! ليرغب المؤمن في لقاء اللّه مُحقّاً، فاني لاأرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما..!
فقام زهير بن القين وقال لأصحابه:
ـ أتتكلمون أم أتكلم..؟
قالوا:
ـ بل تكلم.
فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:
ـ قد سمعنا ـ هداك اللّه ياابن رسول اللّه ـ مقالتك.
واللّه لو كانت الدنيا لنا باقية وكُنّا فيها مَخَلَّدين إلاّ أن نفارقها في نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الاقامة فيها..!
ثم قام بعض أصحابه وقال بمثل ما قال.
فدعا لهم الحسين (عليه السّلام) وقال:
ـ جزاكم اللّه خير الجزاء على ما قدمتم لأهل بيت نبيه، وإني لأرجو ألا تجدوا إلاّ خيراً.
فلما دخل وقت العصر أمر الحسين (عليه السّلام) أصحابه أن يتهيَّأوا للرحيل ففعلوا. ثم أمر مناديه فنادى بالعصر، وأقام.

ثم تقدَّمَ الحسين (عليه السّلام) فصلَّى بالناس، ثم انصرف إليهم بوجهه، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال:

ـ أما بعد، أيها الناس.. فانكم إن تتقوا اللّه وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى للّه عنكم. ونحن أهل بيت محمد أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدَّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان، وإن أبيتم إلاّ الكراهية لنا والجهل بحقنا وكان رأيكم الآن غير ما أتتني به كتبكم وقدمت به عَلَيّ رسلكم انصرفت عنكم.

فقال له الحر:

ـ أما واللّه ما أدري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر.

فنادى الحسين (عليه السّلام) عقبة بن سمعان، وهو مولى الرَّباب ابنة امرىء القيس زوج الحسين (عليه السّلام)، وقال:

ـ ياعقبة.. أخرج الخرجين اللذين فيهما كتبهم إليّ.

فأخرج خرجين مملوءين صحفاً، فنثرت بين يديه.

فقال الحر:

ـ إننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك ألاّ نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيداللّه بن زياد.

فقال (عليه السّلام):

ـ الموت أدنى إليك من ذلك..!

ثم توجه إلى أصحابه، وقال لهم:

ـ قوموا فاركبوا.

وانتظر حتى ركبت النساء، فقال لأصحابه:

ـ انصرفوا.

فلما هَمُّوا بالإنصراف حال القوم بينهم..!

فقال الحسين (عليه السّلام) للحر:

ـ ما ذا تريد..؟!

قال:

ـ أريد أن أنطلق بك إلى الأمير عبيداللّه بن زياد.

فقال:

ـ إذن واللّه لاأتبعك.

قال الحر:

ـ إذن واللّه لأدعك..!

وترادّا بالقول ثلاث مرات، وكثر الكلام بينهما.

فقال الحر:

ـ إني لم أومَر بقتالك، وإنما أُمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة. فاذا أبيت فخذ طريقاً لايدخلك الكوفة ولايردُّكَ إلى المدينة يكون بيني وبينك نَصفاً حتى أكتب إلى الأمير عبيداللّه بن زياد، فلعل اللّه يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك. فخذ هنا، فتياسر عن طريق العذيب والقادسية.

فأمر الحسين (عليه السّلام) أصحابه بالسير والتياسر، ثم سار، والحر يسايره.

٢٩

وسار الركبان على هذه الحال حتى وصلا إلى منطقة البيضة. فخطب الحسين (عليه السّلام) في الناس قائلاً بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه:

ـ أيها الناس، إن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم اللّه، ناكثا لعهد اللّه، مخالفاً لسُنّة رسول اللّه، يعمل في عباد اللّه بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولاقول، كان حقا على اللّه أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد، وعَطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام اللّه، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم أنكم لاتسلموني ولاتخذلوني. فان تممتم عليّ بيعتكم أصبتم رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول اللّه، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أسوة. وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترَّ لكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم. ومن نكث فانما ينكث على نفسه، وسيغني اللّه عنكم. والسلام عليكم ورحمة ا للّه وبركاته.

ثم واصل الرّكبان طريقهما.

فضيّق الحر بن يزيد عليه الطريق وقال:

ـ ياحسين، إني أذكرك اللّه في نفسك، فاني أشهد لئن قاتلت لتُقتلنّ.

فقال له (عليه السّلام).

ـ أفبالموت تخوفني..؟! وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني..! سأقول لك كما قال أخو الأوس لابن عمه، وهو يريد نصرة رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله وسلّم)، فخوَّفهُ ابن عمه وقال:

أين تذهب فانك مقتول؟ فقال:

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى
إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مثبوراً وخالفَ مجرما

فان عشتُ لم أندم وإن مت لم أُلَم
كفى بك ذُلا أن تعيشَ وتُرغما

فلما سمع الحر ذلك تنحّى عنه، وجعل يسير ناحيةً والحسين (عليه السّلام) في ناحية أخرى، حتى انتهوا إلى منطقة عذيب الهجانات وبها هجائن للنعمان ترعى هنالك.

فاذا هم بأربعة نفر قد أقبلوا من الكوفة على رواحلهم، وهم: نافع بن هلال، ومجمع بن عبداللّه، وعمرو بن خالد، ودليلهم الطرماح بن عدي الطائي.

فرمى الطرماح ببصره إلى الحسين (عليه السّلام)، وأقبل يرتجز ويقول:

يا ناقتي لا تذعري من زجري
وامضي بنا ـ قبل طلوع الفجرِ
بخير ركبانٍ وخير سَفرِ
حتى تحلّى بكريم النَّحرِ
الماجد الحرّ رحيب الصدر
أتى به اللّه لخير أمرِ
أيّد حسيناً سيدي بالنصرِ
على الطغاة من بغايا الكُفرِ
على اللعينين سليلَي صخرِ
يزيد لا زال حليفَ الخمرِ
وابن زياد عهر ابن العهرِ

فلما انتهو إلى الحسين (عليه السّلام)، أقبل إليه الحر، وقال:

ـ إن هؤلاء النفر من أهل الكوفة، وإني حابسهم أو رادُّهم.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي. إنما هؤلاء أنصاري وهم بمنزلة من جاء معي. فان بقيت على ما كان بيني وبينك، وإلا ناجزتك..!

فكفَّ الحر عنهم وذهب.

فقال لهم الحسين (عليه السّلام):

ـ أخبروني خبر الناس خلفكم.

فقال مجمع بن عبدالله:

ـ أما الأشراف فقد أُعظمت رشوتهم واستمالَهم ابن زياد بالأموال، فهم ألب واحدٌ عليك. وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم مشهورة عليك.

فسأل الحسين (عليه السّلام):

ـ فهل عندكم علم برسولي قيس بن مسهر؟

فأجاب:

ـ نعم. قتله ابن زياد رمياً من أعالي القصر لمّا امتنع عن لعنك ولعن أبيك ودعا إلى نصرتك.

فترقرقت عيناه (عليه السّلام) بالدموع، وقرأ:

ـ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.

ودعا قائلاً:

ـ اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نُزُلا، واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك.

فدنا الطرماح بن عدي وقال له عليه السّلام:

ـ والله ما أرى معك كثير أحد، ولو لم يقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم، ولقد رأيت قبل خروجي من الكوفة بيوم ظَهر الكوفة وفيه من الناس ما لم تر عيناي في صعيد واحد أكثر منه قط. فسألتُ عنهم، فقيل اجتمعوا ليُسرحوا إلى الحسين. فأنشدك الله إن قدرت على ألا تقدم إليهم شبراً، فافعل. فان أردت أن تنزل بلدا

يمنعك اللّه به حتى ترى رأيك ويستبين لك ما أنت صانع فسر حتى أنزلك جبلنا «أُجاء» وأتكفل لك بعشرين ألفاً من طَي يضربون بين يديك بأسيافهم.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ جزاك اللّه وقومك خيرا، وإن بيننا وبين القوم قولاً لانقدر معه على الانصراف، وللّه عاقبة الأمور.

وسار (عليه السّلام) حتى بلغ قصر بني مقاتل، فنزل به، فرأى فسطاطاً مضروباً. فسأل عنه، فقيل إنه لعبيداللّه بن الحر الجعفي، وكان من شجعان الكوفة. فأرسل إليه الحسين (عليه السّلام) يدعوه، فقال الجعفي:

ـ واللّه ما خرجت من الكوفة إلا كراهية أن يدخلها الحسين وأنابها. وليس لي إلى دعوته من سبيل..!

فقام إليه الحسين (عليه السّلام) بنفسه، ودخل عليه في جمع من أصحابه، ودعاه إلى الخروج معه.

فقال:

ـ إعفني من ذلك يا أبا عبداللّه.

فقال له (عليه السّلام):

ـ فان لم تكن ممن ينصرنا فاتق أن تكون ممن يقاتلنا. فواللّه لايسمع واعيَتَنا أحدٌ ثم لاينصرنا إلاّ هلك.

فقال:

ـ أما هذا فلايكون أبداً إن شاء اللّه. ولكن هذا فرسي فخذه، فواللّه ما ركبتُهُ قط وأنا أروم شيئاً إلا بلغته، ولاأرادني أحدٌ إلا نجوت عليه.

فأعرَضَ عنه (عليه السّلام) بوجهه، وقال:

ـ لاحاجة لنا فيك ولافي فرسك..!

ثم قرأ:

ـ وما كنت متخذ المضلّين عضدا.

وتركه وعاد إلى رحله.

٣٠

ولما كان آخر الليل أمر الحسين (عليه السّلام) فتيانه فتزودوا بالماء، ثم أمر بالرحيل فارتحلوا من قصر بني مقاتل.

فغفى (عليه السّلام) وهو على ظهر فرسه ثم انتبه، وقال ثلاثا:

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون، والحمد للّه رب العالمين. فسأله ابنه علي الأكبر (عليه السّلام):

ـ يا أبه.. جُعلت فداك، ممّ استرجعت..؟

فقال:

ـ يا بنيّ، خفقت خفقةً فعَنَّ لي فارسٌ وهو يقول:

القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا..!

قال:

ـ لاأراك اللّه سوءاً يا أبه. ألسنا على الحق؟!

فقال:

ـ بلى والذي إليه مرجع العباد.

قال:

ـ يا أبتي إذن لانبالي أن نموت محقين.

فقال:

ـ جزاك اللّه من ولدٍ خير ماجزى ولداً عن والده.

فلما أقبل الفجر، نزل فصلى، ثم عجَّلَ الركوب.

فأخذ يتياسر بأصحابه، والحر يأتيهم فيردهم نحو الكوفة رداً عنيفاًوهم يمتنعون عليه ويرتفعون.

فلم يزالوا كذلك حتى انتهوا إلى نينوى. فاذا براكب على نجيب وعليه السلاح متنكّب قوساً مقبل من الكوفة. فوقفوا جميعا ينتظرونه.

فلما انتهى إليهم سلم على الحر وأصحابه، ولم يسلم على الحسين (عليه السّلام). ودفع إلى الحر كتاباً من عبيداللّه بن زياد، وفيه:

«أما بعد. فجعَجع بالحسين حين يأتيك كتابي ويقدم عليك رسولي. ولاتنزله إلاّ بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء. وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلايفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري».

فلما قرأ الحر الكتاب نادى في الحسين (عليه السّلام):

ـ هذا كتاب الأمير عبيداللّه بن زياد يأمرني أن أجعجع بكم في المكان

الذي يأتيني فيه كتابه. وهذا رسوله مالك بن بشير الكندي وقد أمره ألا يفارقني حتى أنفذ أمره فيكم.

فقال أحد أصحاب الحسين (عليه السّلام) مخاطباً رسول ابن زياد:

ـ أمالِك بن بشير الكندي..؟!

فأجاب:

ـ نعم.

فقال:

ـ ماذا جئت فيه؟

قال:

ـ وماذا جئتُ فيه؟! أطعتُ إمامي ووفيت بيعتي..!

فقال:

ـ بل عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك، وكسبت العار والنار، وبئس الإمام إمامك. وقد قال اللّه (عزّوجلّ) «وجعلنا منهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لايُنصرون» فامامك منهم..!

وأخذهم الحر بن يزيد بالنزول في ذلك المكان على غير ماء ولاقرية.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ دعنا ويحك ننزل نينوى أو الغاضرية أو شفيّة..!

فقال الحر:

ـ لاأستطيع. هذا رجل قد بعث عليّ عينا..!

فقال زهير بن القين له (عليه السّلام):

ـ إني والله لأرى أن يكون بعد الذي ترون إلاّ أشدّ مما ترون يا ابن رسول الله. وإن قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم مالا قِبَلَ لنا به.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ ما كنت لأبدأهم بقتال.

قال:

ـ فسر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها، فإنها حصينةٌ وهي على شاطىء الفرات. فان منعونا قاتلناهم، فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم.

فقال:

ـ وما هي..؟

قال:

ـ العقر.

فقال الحسين (عليه السّلام):

ـ اللهم إني أعوذ بك من العقر..!

ثم ركب الحسين (عليه السّلام) وسار بأصحابه، والقوم يمنعونه تارةً ويسايرونه أخرى حتى بلغ كربلاء يوم الخميس الثاني من محرم سنة إحدى وستين من الهجرة النبوية.

فلما وصلها سأل ـ وهو الخبير ـ:

ـ أهذه كربلاء..؟

فقيل:
ـ نعم يا ابن رسول اللّه.
فدعا قائلاً:
ـ اللهم إني أعوذ بك من الكرب والبلاء.
ثم أمر أصحابه بالنزول وهو يقول:
ـ هذا موضعُ كَربٍ وبلا، ههنا مناخ ركابنا، ومحط رحالنا، ومقتل رجالنا، ومسفك دمائنا.
ونزل الحسين (عليه السّلام) وأصحابه في جانب، بينما نزل الحر وجنوده في الجانب الآخر.

٣١

ولما كان عبيداللّه بن زياد جالساً في قصر الإمارة يحثُّ وجوه الكوفة وأشرافها على التعجيل في حشد الحشود لإرسالها لقتال الحسين (عليه السّلام)، أتاه كتاب الحر بن يزيد يخبره بنزول الحسين (عليه السّلام) في كربلاء.
فكتب ابن زياد إلى الحسين (عليه السّلام):
«أما بعد ياحسين، فقد بلغني نزولك بكربلاء، وقد كتب إليّ أمير المؤمنين يزيد ألا أتوسد الوثير ولاأشبع من الخمير، أو ألحقك باللطيف الخبير، أو ترجع إلى حكمي وحكم يزيد بن معاوية».

فلما قرأ الحسين (عليه السّلام) الكتاب ألقاه من يده، وقال:
ـ لاأفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق..!
فقال رسول ابن زياد:
ـ الجواب يا أبا عبدالله..!
قال:
ـ ما له عندي جواب، لأنه قد حَقَّت عليه كلمة العذاب..!
فرجع الرسول إلى ابن زياد وأخبره بالأمر.
فغضب ابن زياد غضباً شديداً، وقام، فجمع الناس في جامع الكوفة، وخطب فيهم قائلاً:
ـ أيها الناس، إنكم بلوتم آل أبي سفيان، فوجدتموهم كماتحبون. وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة محمود الطريقة محسناً إلى الرعية، يعطي العطاء في حقه. وقد أمِنت السبيل على عهده. وكذلك كان أبوه معاوية في عصره. وهذا ابنه يزيد يكرم العباد، ويغنيهم بالأموال، وقد زادكم في أرزاقكم مائة مائة، وأمرني أن أوفِّرها عليكم وأخرجكم إلى حرب عدوه الحسين، فاسمعوا له وأطيعوا.
فصاح الغوغاء:
ـ قد سمعنا لأمير المؤمنين وأطعنا..!
ثم غادر ابن زياد جامع الكوفة إلى قصر الإمارة، وبعث خلف عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان ابن زياد قد عقد له رايةً على أربعة

آلاف من أهل الكوفة وسَيَّرَهُ إلى دستبي، وكانت الديلم قد خرجوا إليها وغلبوا عليها، فكتب إليه ابن زياد عهده على الريّ وأمره بالخروج، فخرج وعسكر بالناس في حمّام أعيَن.

فلما جاء عمر بن سعد، قال له ابن زياد:

ـ سر إلى الحسين، فاذا فرغنا مما بيننا وبينه سرت إلى عملك.

فقال ابن سعد وكأنه يتراجع:

ـ إن رأيت، رحمك اللّه، أن تعفيني، فافعل.

فاستدرك ابن زياد ضاغطاً:

ـ نعم.. على أن تردّ لنا عهدنا..!

ففكر ابن سعد ثم قال:

ـ أمهلني اليوم حتى أنظر.

فانصرف ابن سعد، وراح يستشير نصحاءه، فكلهم نهوه عن حرب الحسين (عليه السّلام)، حتى أن ابن أخته واسمه حمزة بن المغيرة بن شعبة قال له:

ـ أنشدك اللّه ألا تسير لحرب الحسين، فتقطع رحمك وتأثم بربك، فواللّه لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كله ـ لو كان لك ـ لكان خيراً لك من أن تلقى اللّه بدم الحسين..!

فأجابه عمر:

ـ أفعل إن شاء اللّه.

وبات عمر بن سعد ليلته وهو يفكر في أمره، ويقول محاوراً نفسه:

أأترك ملك الريّ والريّ رغبتي
أم أرجعُ مذموماً بقتل حسينِ
وفي قتله النارُ التي ليس دونها
حجاب وملكُ الريّ قرة عيني..!

وأمسى نهبا لعوامل الخير والشر، فأضله الشيطان وزين له ملك الريّ.

فلما أصبح أتى إلى ابن زياد، وقلبه ما زال متقلباً، وقال له مشيراً إلى ولاية الريّ:

- إنك ولَّيتني هذا العمل وسمع به الناس، فان رأيت أن تنفذ لي ذلك فافعل، وابعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من لست أغنى في الحرب منه..!

فلما استشعر ابن زياد شدة تعلق ابن سعد بالريّ أمسك بطرف الخيط الحسّاس وجذبه قائلا:

- إنى لست أستأمرك فيمن أريد أن أبعث، فان سرت بجندنا، وإلا فابعث إلينا بعهدنا..!

ونظر إليه نظرة ذات معنى وقد بدت على جانب فمه ابتسامة مغتصبة.

فأطرق ابن سعد وقد أدرك هدف ابن زياد، وتذكر قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السّلام) عندما قابله ذات يوم، وهو شاب، فقال له: ويحك يا ابن سعد! كيف بك إذا قمت يوما مقاماً تُخَيَّرُ فيه بين الجنة والنار فتختار النار.!!

فلم يمهله ابن زياد، وقد اشتد عناده وإلحاحه، وقال له:

ـ أوَ تبعثُ إلينا بعهدنا..؟!

فأفاق ابن سعد من تأملاته، وحَزَمَ أمره وقال:

ـ إني سائر..!!

٣٢

ووصل عمر بن سعد إلى كربلاء في اليوم الثالث من محرم ومعه أربعة آلاف فارس.

فأراد أن يبعث رسولاً إلى الحسين (عليه السّلام) يسأله ما الذي جاء به. فعرض ذلك على جماعة، فكلهم أبوا استحياءً من الحسين (عليه السّلام) لأنهم كاتبوه.

فقام كثير بن عبداللّه الشعبي، وكان فارساً مقداماً لايمتنع عليه شيء، وقال في خُيلاء:

ـ أنا أذهب إليه، وإن شئتَ فتكتُ به..!

فقال له عمر:

ـ ما أريدك أن تفتك به، ولكن إذهب فسله ما الذي جاء به.

فأقبل الشعبي وعليه سيماء العُجب والغرور.

فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين (عليه السّلام):

ـ قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأفتكهم وأجرأهم على دم..!

ثم نهض إليه وقال له قبل أن يقترب:

ـ ضع سيفك..!

فقال الشعبي وقد تملّكَهُ التيه والكبرياء:

ـ لا واللّه ولا كرامة، إنما أنا رسول، فان سمعتم مني وإلاّ انصرفت..!

فقال الصائدي:

ـ فآخذ بقائم سيفك ثم تكلم.

فقال:

ـ لا.. واللّه لاتمسه..!

فسأله الصائدي:

ـ فأخبرني بما جئت به وأنا أبلغه عنك ولاأدعك تدنو منه.

فرفض الشعبي، وترافعا، واستبّا.

وعاد الشعبي إلى ابن سعد منكسراً وأخبره بما كان، فأرسل قرة بن قيس الحنظلي وأمره بالهوادة والتعقل.

فلما رآه الحسين (عليه السّلام) مقبلاً قال:

ـ أتعرفون هذا..؟

فأجاب حبيب بن مظاهر:

ـ نعم. هذا رجل من حنظلة تميم وهو ابن أختنا، وقد كنت أعرفه بحسن الرأي، وما كنت أراه يشهد هذا المشهد..!

فأقبل الحنظلي وسلّم على الحسين (عليه السّلام) وقال:

ـ إن ابن سعد يسألك ما الذي جاء بك.

فأجابه (عليه السّلام):

ـ كتب إليّ أهل مضركم أن أقدِم. فأمّا إذا كرهتموني فأنصرف عنكم.

فتدخل ابن مظاهر ناصحاً:

ـ ويحك ياقرة..! أين ترجع إلى القوم الظالمين؟

انصر هذا الرجل الذي بآبائه أيدك اللّه بالكرامة..!

فقال قرة:

ـ أرجع إلى صاحبي بجواب رسالته وأرى رأيي.

وانصرف فأخبر ابن سعد بجواب الحسين (عليه السّلام).

فقال ابن سعد متأملاً:

ـ أرجو أن يعافيني اللّه من أمره..!

وكتب إلى ابن زياد كتاباً يطلعه على ما حدث وكان فيه:

«أما بعد. فاني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسولي فسألته عما أقدمه وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إليّ أهل هذا البلد وأتتني رسلهم فسألوني القدوم ففعلت. فاما إذا كرهوني فبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم فأنا منصرف عنهم».

فلما قرأ ابن زياد الكتاب شمتَ واستبد به الغرور واستشهد بالبيت القائل:

الآن إذ عَلقَت مخالِبُنا به

يرجو النجاة ولاتَ حين مناص..!

وكتب إلى ابن سعد يقول:

«أما بعد، فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت.

فاعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه.

فاذا فعل رأينا رأينا».

فلما قرأ ابن سعد كتاب ابن زياد قال يائساً:

ـ قد حسبت ألا يقبل ابن زياد العافية..!

وظل ابن زياد في الكوفة يأخذ أهلها بالشدة والترهيب تارة، واللين والترغيب أخرى. فكان يقتل على الظنّة والتهمة، ويمنّي بالمال الوفير حتى انقاد له سواد الناس. فمن خرج عن أمره حبسه، حتى بات في محبسه نحو اثني عشر ألفا. ومن نزل على أمره بعثه إلى كربلاء.

وما زال ابن زياد يرسل الكتيبة تلو الأخرى والفوج بعد الآخر حتى بلغ جيشه في كربلاء نحو ثلاثين ألفاً وعليهم عمر بن سعد.

فلما تكامل له هذا العدد الوفير بعث إلى ابن سعد كتاباً يقول فيه:

«أما بعد، إني لم أجعل لك علةً في كثرة الخيل والرجال، فانظر لاأُصبح ولاأُمسي إلاّ وخبرك عندي غدوةً وعشية».

وكان ذلك في السادس من محرم.

٣٣

ورأى أصحاب الحسين (عليه السّلام) توافد جموع الأعداء

وتزايد عددهم، فكلم حبيب بن مظاهر الحسين (عليه السّلام) وقال:
- يا ابن رسول اللّه، ههنا حيٌّ من بني أسد بالقرب منّا، فلو أذنت لي بالذهاب إليهم لأدعوهم إلى نصرتك، فعسى اللّه أن يدفع بهم عنك.
فأذن له.

فخرج إليهم حبيب في جوف الليل وقال لهم:
- إنني أسدي، وإني قد أتيتكم بخير ما أتى به وافد إلى قوم. أتيتكم أدعوكم إلى نصر ابن بنت نبيكم، فإنه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خيرٌ من ألف رجل، لن يخذلوه ولن يسلموه أبدا. وهذا عمر بن سعد قد أحاط به، وأنتم قومي وعشيرتي، وقد أتيتكم بهذه النصيحة فأطيعوني اليوم في نصرته تنالوا بها شرف الدنيا والآخرة، فإني أقسم باللّه لايُقتَل أحد منكم في سبيل اللّه مع ابن بنت رسول اللّه صابراً محتسباً إلاّ كان رفيقاً لمحمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) في عليِّين.
فقام رجلٌ منهم اسمه عبداللّه بن بشر، وقال:
أنا أول من يجيب هذه الدعوة.
ثم جعل يرتجز ويقول:

قد علم القوم إذا تواكلوا
وأحجم الفرسان أو تثاقلوا
أني شجاعٌ بطلٌ مقاتلُ
كأنني ليثُ عرينٍ باسلُ

فتحمس القوم وأخذ رجال الحي يتبادرون حتى اجتمع منهم تسعون

رجلاً، وأقبلوا يريدون الحسين (عليه السّلام).

فخرج رجلٌ من الحي إلى ابن سعد ووشى إليه بخبرهم، فأرسل إليهم أربعمائة فارس مع قائد يقال له الأزرق.

فالتقوا معهم قبل وصولهم إلى الحسين (عليه السّلام)، فتناوشوا واقتتلوا.

فصاح حبيب بالأزرق:

ـ ويلك..! مالك ومالنا..؟ انصرف عنا ودعنا يشقي بنا غيرك.

فقال الأزرق:

ـ لا أنصرف حتى يعودوا.

فلما وجد بنو أسد أنه لاطاقة لهم برجال ابن سعد انثنوا إلى حيهم راجعين..!

وعاد ابن مظاهر إلى الحسين (عليه السّلام) فأخبره، فقال أبو عبدالله (عليه السّلام) متوسلاً بالقدرة الإلهية:

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله..!!

٣٤

ثم استمر ابن زياد يحثُّ عمر بن سعد على قتال الحسين (عليه السّلام)، فكتب إليه يقول:

«أما بعد. فحُل بين الحسين وأصحابه وبين الماء، ولايذوقوا منه

قطرة..».

فبعث ابن سعد رجلاً اسمه عمرو بن الحجاج في خمسمائة فارس، فنزلوا على شريعة الماء، وحالوا بين الحسين (عليه السّلام) وأصحابه وبين الماء، ومنعوهم أن يستقوا منه قطرة.

وقام رجل يُدعى عبدالله بن حصين الأزدي، فصاح بأعلى صوته:

ـ ياحسين ـ تنظرون الماء كأنه كبد السماء..!

والله لاتذوقون منه قطرةً واحدة حتى تموتوا عطشا.

فدعا عليه الحسين (عليه السّلام) قائلاً:

ـ اللهم اقتله عطشا، ولاتغفر له أبدا.

فمرض الأزدي إثر ذلك، فجعل يُسقى ماءً فلايُروى، ويصيح:

ـ العطش..! العطش..!

فيُسقى، فيقيء الماء ويتلظّى عطشا. فبقي كذلك حتى هلك..!

ولما وجد الحسين (عليه السّلام) أن العطش قد اشتد بأصحابه وأهل بيته أمر أخاه العباس (عليه السّلام)، فسار في عشرين رجلاً يحملون القرب وثلاثين فارسا. فجاءوا ليلاً حتى اقتربوا من الماء وأمامهم نافع بن هلال البجلي يحمل اللواء.

فصاح عمرو بن الحجاج:

ـ من الرجل..؟

فأجاب:

ـ نافع.

فسأل:

ـ ما جاء بك..؟

فأجاب:

ـ جئنا نشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه.

فقال:

ـ اشرب هنيئا..!

فقال نافع:

ـ والله لأشرب منه قطرة والحسين (عليه السّلام) عطشان هو وأصحابه..!

فرفض ابن الحجاج قائلاً:

ـ لاسبيل إلى سقي هؤلاء. إنما وُضعنا بهذا المكان لنمنعهم من الماء.

فلم يحفل به نافع، وقال للرجال:

ـ املأوا قربكم.

فملأوها. فهجم عليهم عمرو بن الحجاج ورجاله.

فحمل عليهم العباس (عليه السّلام) فكشفهم وعاد بالماء إلى العطاشي.

٣٥

وأراد الحسين (عليه السّلام) أن يقيم الحجة على عمر بن سعد

عَلَّة ينثني عن هواه، وقد رأى أنه يكره قتاله.

فبعث إليه عمرو بن قرظة بن كعب الأنصاري وطلب منه أن يلقاه ليلاً بين العسكرين.

فأقبل ابن سعد في عشرين فارساً، وخرج الحسين (عليه السّلام) في مثل ذلك.

فلما التقوا أمر الحسين (عليه السّلام) أصحابه أن يتنحوا عنه، وكذلك فعل عمر بن سعد.

فقال الحسين (عليه السّلام):

ـ ويحك يا ابن سعد..! أما تتقي اللّه الذي إليه معادك..؟! أتقاتلني وأنا ابن مَن علمت؟ دع هؤلاء القوم وكن معي فأنا أقرب لك إلى اللّه..!

فقال ابن سعد متخوفا:

ـ أخاف أن تُهدم داري..!

فقال (عليه السّلام):

ـ أنا أبنيها لك..!

فقال:

ـ أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

فطمأنه (عليه السّلام):

ـ أخلف عليك خيراً منها من مالي بالحجاز..!

فتابع ابن سعد:

ـ لي عيالٌ وأخاف عليهم.
فنصحه (عليه السّلام):
ـ لهم اللّه..!
فسكت ابن سعد، ولم يجب..!!
فانصرف عنه الحسين (عليه السّلام) وهو يقول:
ـ مالك..! ذبحك اللّه على فراشك عاجلاً ولاغفر لك يوم حشرك.
فواللّه اني لأرجو ألا تأكل من بُرّ العراق إلاّ يسيرا..!
فأجابه ابن سعد ساخراً:
ـ في الشعير كفاية عن البُرّ..!
ثم عاد ابن سعد إلى خيمته وأخذ يُقلِّبُ الأمر على جوانبه.
فتفتق ذهنه عن فكرة ظن أنها ستعفيه من قتال الحسين (عليه السّلام) وتحفظ له ولاية الريّ في آنٍ واحد..! مستغلاً اجتماعه إلى الحسين (عليه السّلام)..!
فكتب إلى ابن زياد كتاباً افترى فيه فرية على الحسين (عليه السّلام)، وفيه يقول:
«أما بعد. فان اللّه قد أطفأ النائرة وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة. هذا حسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى، أو أن نسيّره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئنا، فيكون رجلاً من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم، أو أن يأتي إلى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده، فيرى فيما بينه وبينه رأيه، وفي هذا لكم رضا وللأمة صلاح..»..!!

فلما وصل الكتاب إلى ابن زياد، فانه جُنّ فرحاً وطار عقله سروراً، وقال لمن في مجلسه:

ـ هذا كتاب رجلٍ ناصح ومشفق على قومه..!

فقال له شمر بن ذي الجوشن:

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك؟

واللّه لئن رَحَلَ من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز. ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه، فان عاقبت فأنت أولى بالعقوبة، وإن عفوت كان ذلك لك..! واللّه لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكر فيتحدثان عامَّة الليل..!

فدهش ابن زياد واغتر بكلام شمر، فتغَيَّرَ وقال:

ـ نِعمَ ما رأيت..! الرأي رأيك..!

وكتب كتاباً إلى عمر بن سعد، وأرسله مع شمر بن ذي الجوشن في نحو ستة آلاف رجل.

فلما فَضَّ ابن سعد الكتاب وجد فيه:

«أما بعد. فاني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولالتُمنّيه السلامة والبقاء ولالتقعد له عندي شافعا. أنظر، فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث إليّ بهم سلما. وإن أَبَوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتُمثّل بهم فإنهم لذلك مستحقون. فان قُتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره، فانه عاق شاق ظلوم.

ولست أرى أن هذا يضر بعد الموت شيئاً، ولكن على قول لو قتلته لفعلت هذا به. فان أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنّا قد أمرناه بأمرنا..».

فطوى ابن سعد الكتاب وقال لشمر مؤنباً:

ـ ويلك.. مالك..؟! لاقرّب اللّه دارك، وقبّح اللّه ما قدمت به عليّ..! واللّه إني لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كتبت به إليه. لقد أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح..!

لايستسلم واللّه الحسين، إن نفس أبيه لبين جنبيه..!

فلم يهتم الشمر بقوله، وخاطبه مهدداً:

ـ أخبرني ما أنت صانع؟ أتمضي لأمر أميرك وتقتل عدوه، أو تخلّي بيني وبين الجند والعسكر، فأضرب عنقك كما أمر الأمير وأبعث إليه برأسك..؟!

فقال ابن سعد وقد تملكه حب التملك والرئاسة:

ـ لا ـ ولاكرامة لك..! سأتولى أنا ذلك، وكن أنت على الرجالة..!!

٣٦

توهَّجَت الشمس في السماء في ضحى ذلك اليوم الصيفي القائظ وهو التاسع من المحرم.

وأضحت رمال كربلاء رماداً حارقاً يشوي الأقدام ويبثُّ الحرارة في كل الأرجاء، فاذا بالطف وكأنه قطعة من النار الملتهبة.
واشتد العطش بالحسين (عليه السّلام) وأهل بيته. فطلبوا الماء فلم يجدوه، وقد ضيق ابن سعد الخناق على نهر الفرات وعزز جنوده على شريعة الماء منذ عملية الاختراق التي قام بها العباس (عليه السّلام).
ونال العطش من المراضع والأطفال، حيث جَفَّت الأواني ويُبِسَت الشفاه وتَلَظَّت الأفئدة.
فمضت سكينة بنت الحسين (عليهما السّلام) إلى عمتها العقيلة زينب (عليها السّلام) لعلّها تكون قد ادخرت شيئاً من الماء فتعود به للنساء والصبايا الباكين. فوجدتها جالسةً وفي حجرها عبداللّه الرضيع وهو يلوك بلسانه من شدة العطش ويبكي بينما زينب (عليها السّلام) تهدهده، فتقوم به تارة وتقعد أخرى حتى تسكته.
فخنقت العبرة سكينة (عليها السّلام)، ولكنها تجلَّدَت ولزمت الصمت، ثم ما لبثت أن أجهشت بالبكاء.
فقالت لها عمتها:
ـ ما الذي يبكيك..؟
فقالت:
ـ حال أخي الرَّضيع أبكاني، وبكاء الأطفال الرُّضَّع أحرق قلبي. فهلاَّ مضينا إلى خيام عمومتي لعلَّ لديهم فضلاً من الماء..!
فقامتا، ودارتا على الخيام جميعها، فلم تجدا حتى ولو قطرة..!

فعادت زينب (عليها السّلام) إلى خيمتها تتبعها سكينة (عليها السلام)، وخلفهما نحو عشرين طفلاً يبكون ويطلبون الماء، ويصيحون:

ـ العطش..! العطش..!

فجلست زينب وابنة أخيها (عليهما السّلام) تبكيان وحولهما الأطفال يشهقون من الظمأ.

ولما اقتربت الظهيرة، واشتدت حرارة الشمس والتهبت الحلوق، وارتفع صياح الأطفال، قام بريَر بن خضير الهمداني، وقال للحسين (عليه السّلام):

ـ أتأذن لي أن أكلم القوم..؟

قال:

ـ فكلمهم..!

فنادى في عمر بن سعد وعسكره:

ـ يامعشر الناس.. إن اللّه (عزّوجلّ) بعث محمداً (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيرا. وهذا ماء الفرات تقع فيه خنازير السواد وكلابه، وقد حيل بينه وبين ابن رسول اللّه..!

فصاح رجلٌ من عسكر ابن سعد:

ـ يابُرير.. قد أكثرتَ الكلام، فاكفُف! واللّه ليعطش الحسين كما عطش مَن كان قبله..!

فلما سمع الحسين (عليه السّلام) جواب القوم قام إليهم متكئا على

سيفه وعل رأسه عمامة وخاطبهم قائلاً:

ـ أنشدكم اللّه هل تعرفوني؟

قالوا:

ـ نعم.

فقال:

ـ أنشدكم اللّه هل تعلمون أن جدي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم)؟

قالوا:

ـ اللهم نعم.

فقال:

ـ أنشدكم اللّه هل تعلمون أن أمي فاطمة بنت محمد (صلّى اللّه عليه وآلهوسلّم)..؟

قالوا:

ـ اللهم نعم.

فقال:

ـ أنشدكم اللّه هل تعلمون أن أبي علي بن أبي طالب (عليه السّلام)..؟

قالوا:

ـ اللهم نعم.

فقال:

ـ أنشدكم اللّه هل تعلمون أن جدتي خديجة بنت خويلد أول نساء هذه

الأمة إسلاما..؟

قالوا:

- اللهم نعم.

فقال:

- أنشدكم اللّه هل تعلمون أن هذا سيف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) أنا متقلِّدُه..؟

قالوا:

- اللهم نعم.

فقال:

- أنشدكم اللّه هل تعلمون أن هذه عمامة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) أنا لابسها..؟

قالوا:

- اللهم نعم.

فقال:

- أنشدكم اللّه هل تعلمون أن علياً كان أول القوم إسلاما وأعلَمهم علماً وأعظَمَهم حلما وأنه وليّ كل مؤمنٍ ومؤمنة..؟

قالوا:

- نعم.

فقال (عليه السّلام):

- فبم تَستَحلُّون دمي وأبي الذائد عن الحوض يذودُ عنه رجالاً كما يُذاد

البعير، الصادُّ عن الماء، ولواء الحمد في يد أبي يوم القيامة..؟!

فأجابوا:

ـ قد علمنا كل ذلك، ولكننا غيرُ تاركيكَ حتى تذوق الموت عطشا..!!

فعاد الحسين (عليه السّلام) إلى خيمته وقد استعبَرت عيناه، وهو يقول:

ـ لا إله إلا اللّه، ولاحول ولاقوة إلا باللّه، وإنا للّه وإنا إليه راجعون..!!

٣٧

فلما كان عصرُ التاسع من المحرم، نادى عمر بن سعد في جنوده قائلاً:

ـ ياخيل اللّه اركبي، وبالجنة أبشري..!

فركب الناس وتصايحوا.

فتقدمهم ابن سعد وزحف بهم نحو الحسين (عليه السّلام).

وكان الحسين (عليه السّلام) جالساً أمام خيمته محتبياً سيفه. فبينما هو كذلك خفق برأسه على ركبتيه.

فلما سمعت زينب جلبة القوم خفّت إلى أخيها ودنت منه وقالت:

ـ يا أخي أما تسمع الأصوات قد اقتربت..؟!

فرفع الحسين (عليه السّلام) رأسه وقال:

ـ إني رأيت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا.

فلطمت زينب (عليها السّلام) وجهها وقالت:

ياويلتاه..!

فقال لها الحسين (عليه السّلام):

- ليس لك الويل يا أختي. اسكتي رحمك الرحمن.

عندئذٍ أقبل العباس بن علي (عليهما السّلام) مسرعاً وقال:

- يا أخي.. أتاك القوم.

فنهض الحسين (عليه السّلام) وقال له:

- اركب أنت يا أخي حتى تلقاهم فتقول لهم مالكم وما بدا لكم وتسألهم عَمّا جاء بهم.

فأتاهم في عشرين فارساً فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر، فقال لهم:

- ما بدا لكم، وما تريدون..؟

قالوا:

- جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم.

فقال:

- فلاتعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبدالله فأعرض عليه ماذكرتم.

فوقفوا وقالوا:

- ألقِه، فأعلِمهُ ذلك ثم ألقِنا بما يقول.

فركض العباس (عليه السّلام) بفرسه عائداً وبقي من كانوا معه أمام القوم.

فقال حبيب لزهير:

ـ كلِّم القوم إن شئت، وإن شئت كلمتُهم.

فرد عليه زهير:

ـ أنت بدأت بهذا فكلِّمهم أنت.

فرفع حبيب صوته وخاطبهم:

ـ أما واللّه لبئس القوم عند اللّه غداً قومٌ يقدِمون عليه وقد قتلوا ذريةَ نبيِّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وأهل بيته وعبّاد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين اللّه كثيرا.

فقال له عزره بن قيس:

ـ إنك لتزكي نفسك ما استطعت..!

فقال له زهير وقد دخل في الحوار:

ـ ياعزرة، إن اللّه قد زكّاها وهداها، فاتق اللّه ياعزرة..! فإني لك من الناصحين. أنشدك اللّه ياعزرة ألاّ تكون ممن يُعين الضلال على قتل النفوس الزكية..!

فقال:

ـ يازهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت إنما كنت عثمانيا..!

فأجابه زهير:

ـ أفلست تستدل بموقفي هذا أني منهم؟! أما واللّه ما كتبت إليه كتاباً قط، ولا أرسلت إليه رسولاً قط، ولاوعدته نصرتي قط. ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيتُه ذكرت به رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله

وسلّم) ومكانه منه، وعرفت ما يجري عليه من عدوه وحزبكم، فرأيت أن أنصره وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه حفظاً لما ضيعتم من حقّ اللّه وحقّ رسوله (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم).

عند ذلك أقبل العباس (عليه السّلام) يركض بفرسه حتى انتهى إليهم فقال:

ـ ياهؤلاء إنّ أبا عبداللّه يسألكم أن تنصرفوا هذه العشية حتى ينظر في هذا الأمر.

وكان الحسين (عليه السّلام) قد قال له: أرجع إليهم فان استطعت أن تؤخّرهم إلى غدوة وتدفعهم عنا هذه العشية لعلّنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني كنت أحبّ الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار.

فالتفت ابن سعد إلى شمر وقال مستشيراً إياه:

ـ ما ترى ياشمر..؟

فأجابه شمر:

ـ ما ترى أنت، فانك الأمير والرأي رأيك.

فقال ابن سعد وكأنه يلوم نفسه:

ـ قد أردتُ ألاّ أكون..!

ثم توجه إلى الناس وقال:

ـ ماذا ترون..؟

فقال له عمرو بن الحجاج بن سلمة الزبيدي:

ـ سبحان اللّه..! واللّه لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغي لك أن تجيبهم إليها..!

وقال قيس بن الأشعث:

ـ أجبهم إلى ما سألوك، فلعمري ليصبحنك بالقتال غدوة..!

فقال ابن سعد:

ـ واللّه لو أعلم أنهم سيفعلون ما أخَّرتُهم العشية..!

ثم عاد بالجنود إلى معسكرهم.

٣٨

واقترب مساء التاسع من المحرم، فجمع الحسين (عليه السّلام) أصحابه أمام خيمته وابنه علي بن الحسين (عليهما السّلام) بداخلها يقاوم المرض.

فتحدّث إليهم قائلاً:

ـ أُثني على اللّه تبارك وتعالى أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم إنّي أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة وعلّمتنا القرآن وفقّهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين. أما بعد، فإني لاأعلم أصحاباً أولى ولاخيراً من أصحابي، ولاأهل بيت أبرّ ولاأوصل من أهل بيتي، فجزاكم اللّه عنّا جميعاً خيرا. ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا، ألا وإني قد رأيت لكم

فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، ثم ليأخذ كل رجلٌ منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرَّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يُفرِّج اللّه، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني لَهُوا عن طلب غيري.

فقام إليه أهل بيته يتقدَّمهم العباس (عليه السّلام)، وقالوا:

ـ ولِمَ نفعل ذلك؟ ألنبقى بعدك..؟! لا أرانا اللّه ذلك أبدا..!

فالتفت الحسين (عليه السّلام) لبني عقيل وقال:

ـ حسبكم من القتل بمسلم بن عقيل، فاذهبوا قد أذنت لكم.

فقالوا:

ـ سبحان اللّه..! فما يقول الناس لنا، وما نقول لهم..؟! أنقول تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولاندري ما صنعوا..؟! لا واللّه ما نفعل، ولكننا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نَرِد موردك، فلاخير في العيش بعدك..!

وتأثّر أصحاب الحسين (عليه السّلام) بما سمعوا، فقاموا يتسابقون في إظهار العزم والفداء والتفاني في سبيل اللّه وأهل بيت رسوله.

فقال مسلم بن عوسجة الأسدي:

ـ أنحن نُخَلّي عنك وقد أحاط بك الأعداء ولمّا نُعذر إلى اللّه في أداء حقك..؟! أما واللّه حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمهُ في يدي ولاأفارقك. ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به

لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك..!

وقام سعد بن عبدالله الحنفي فقال:

- والله لانخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فيك. والله لو علِمتُ أنّي أُقتَل ثم أُحيا ثم أُحرق حيّاً ثم أُذرى، يُفعل بي ذلك سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لاأفعل ذلك، وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لاانقضاء لها أبدا..!!

ثم قال زهير بن القين:

- والله يا ابن رسول الله لودَدتُ أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت، حتى أُقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك..!

وتكلَّم جماعة من الأصحاب قائلين:

- والله لانفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فاذا نحن قُتلنا كنّا وَفَينا وقضينا ما علينا..!

فلما رأى الحسين (عليه السّلام) منهم ذلك، قال لهم:

- إن كنتم كذلك فارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى منازلكم.

فرفعوا رؤوسهم. وتكلّم (عليه السّلام) باسم الله الأعظم، فانكشف لهم الغطاء، وأُزيحت الحُجُب، ورأوا منازلهم وحورهم وقصورهم في الجنة..!!

٣٩

وطلع قمرٌ حزين في السماء في تلك الليلة، ثم انثنى نحو المغيب مؤذناً بالرحيل، مخلّفا وراءه أسراب الليل تخفق بأجنحتها السوداء على كربلاء.

فخرج الحسين (عليه السّلام) وحده ليتفقّد المنطقة بثناياها وأكماتها ويختبر ساحة النزال المرتقب.

فأبصر خلفه رجلاً، فنادى:

ـ من الرجل؟ نافع البجلي؟

فأجاب:

ـ نعم جعلت فداك يا ابن رسول اللّه.

قال:

ـ ما أخرجك في هذا الليل؟

فقال نافع:

ـ لقد أزعجني خروجك ليلاً ياسيدي إلى جهة الباغي.

فطمأنه الحسين (عليه السّلام) قائلاً:

ـ خرجتُ أتفقّد هذه التلعات مخافة أن تكون مكمناً لهجوم الخيل على مخيّمنا.

ثم رجع الحسين (عليه السّلام) وقد قبض على يدَ نافع، وقال له:

هي هي واللّه، وَعدٌ لاخُلفَ فيه. ألاَ تَسلُك بين هذين الجبلين وتنجو بنفسك..؟!

فأجاب نافع:

ـ إذن ثَكَلَت نافعاً أمُّه يا ابن رسول اللّه..!

إن سيفي بألف، وفرسي بمثله. فواللّه الذي مَنَّ عليَّ بك في هذا المكان لن أفارقك أبداً حتى يَكِلاَّ عن فَريٍ وجَري..!

فضغط الحسين (عليه السّلام) على يده، واستودعه، ودخل إلى خباءٍ له، فاعتزل فيه وأخذ يعالج سيفه وينشد:

يـا دهـرُ أُفٍّ لـك مـن خليـلِ
كـم لـك بـالاشراقِ والأصيـلِ
من صـاحبٍ أو طـالبٍ قتيـلِ
والـدهـرُ لا يقـنـعُ بـالبـديـلِ
وإنّـمـا الأمـرُ إلى الجـلـيـلِ
وكـلُّ حَيٍّ سالكٌ سبيـلـي

وأخذ يكرر الأبيات حتى أعادها ثلاث مرات.

فسمعته أخته زينب (عليها السّلام)، فجزعت ولم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرةً حتى انتهت إليه فقالت:

ـ واثكلاه..! ليت الموت أعدمني الحياة..!

اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن..!

يا خليفة الماضي وثمال الباقي..!

فنظر إليها الحسين (عليه السّلام) وقال:
ـ يا أخيَّة، لا يُذهبَنَّ الشيطان حلمك..!
فقالت مشفقةً عليه:
ـ بأبي أنت وأمي يا أبا عبدالله فدتك نفسي..!
فترقرقت عيناه بالدموع وقال:
ـ لو تُرك القطا ليلاً لنام..!!
فصاحت:
ـ ياويلتاه..! أفتغتصب نفسك اغتصابا..؟!
فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي..!
ثم لطمت وجهها، وخرت مغشياً عليها.
فقام إليها الحسين (عليه السّلام)، وأقعدها، وقال لها مواسيا:
ـ يا أختاه.. اتقي الله، وتَعَزَّي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأن أهل السماء لايبقون، وأن كل شيء هالكٌ إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعثهم فيعودون، وهو فردٌ وحده. أبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني، ولي ولهم ولكلّ مسلمٍ برسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أسوة حسنة.
فهدأت زينب (عليها السّلام) وقد تعزَّت بكلامه.
فقال لها:
ـ يا أخيّة، إني أقسمت عليك فَأبرّي قسمي.
لاتشقي عليَّ جيباً، ولاتخمشي عليَّ وجهاً، ولاتدعى عليَّ بالويل

والثبور إذا أنا هلكت.

وعاد بها إلى خيمتها وأجلسها، ثم ودَّعَها وعاد إلى أصحابه فوجدهم مقبلين على اللّه تعالى بين راكعٍ وساجدٍ وقائمٍ وقاعد ومستغفرٍ ومتضرعٍ وقارىء للقرآن، ولهم دويٌّ كدوي النحل.

فبينما هم كذلك والحسين (عليه السّلام) معهم إذ أقبلت سرية لعمر بن سعد عليها عزرة بن قيس تراقب وتتجسس. فقرأ الحسين (عليه السّلام) قوله تعالى «ولايحسبن الذين كفروا أنّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين * ما كان اللّه ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب».

فسمعها رجل من السرية، فقال:

ـ نحن، وربّ الكعبة، الطيبون، ميَّزَنا منكم.

فقال أحد أصحاب الحسين (عليه السّلام) لبرير بن خضير:

ـ أتدري من هذا..؟

قال:

ـ لا.

فقال:

ـ إنه أبو حرب السبيعي، وقد كان مضحاكاً مهزاراً..!

فخاطبه برير قائلا:

ـ يافاسق! أأنت يجعلك اللّه في الطيبين..؟!

فناداه أبو حرب:

ـ من أنت؟

فقال:

ـ أنا برير بن خضير.

قال:

ـ إنّا للّه..! عزّ عليَّ! هلكت واللّه يابرير..!

فقال:

ـ يا أبا حرب، هل لك أن تتوب إلى اللّه من ذنوبك العظام..؟ فواللّه إنّا لنحن الطيبون، ولكنكم لأنتم الخبيثون.

فقال أبو حرب مازحاً:

ـ وأنا على ذلك من الشاهدين..!

فنصحه ابن خضير قائلا:

ـ ويلك..! ألا تنفعك معرفتك؟!

فاستمر أبو حرب في مزاحه وقال:

ـ جعلت فداك..! فمن ينادم يزيد بن عزرة العنزِي، فها هو ذا معي..؟!

فعنفه برير وقال:

ـ قبّح اللّه رأيك..! على كل حال أنت سفيه..!

فلمّا مضت السَّرية، جمع الحسين (عليه السّلام) أصحابه ووقف بينهم. وشرعوا جميعاً يحفرون خندقاً وراء خيامهم. حتى إذا فرغوا منه أمرهم (عليه السّلام) أن يضعوا فيه الحطب ثم يضرموا النار فيه في الغداة لكيلا يهجم العدو من خلف الخيام. ثم أمرهم أن يقرّبوا بين

بيوتهم ويُدخلوا الأطناب بعضها في بعض، ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجهٍ واحد والبيوت من ورائهم وعن يمينهم وشمالهم قد حفّت بهم إلا الوجه الذي يأتي منه العدو.

فلما اكتملت الخطة ودَّعهم الحسين (عليه السّلام) وعاد إلى خبائه وبات قائماً يصلي ويتهجَّد.

وعند السَّحَر خفق (عليه السّلام) خفقةً، فرأى في المنام كلاباً تنهشُهُ وأشدّها عليه كلب أبقع.

فعلم أن الذي سيتولى قتله رجلٌ أبرص..!

ثم رأى جده رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وقد أتاه في جماعة من الصحابة، فقال له:

ـ أنت شهيد هذه الأمة، وقد استبشر بك أهل السماوات والملأ الأعلى، فعجِّل ولاتتأخر. وهذا ملاك قد نزل عليك من السماء ليأخذ دمك في قارورة خضراء..!

فتيقن الحسين (عليه السّلام) بقرب عروجه إلى ملكوت الأبرار.

٤٠

وتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من فجر يوم عاشوراء.

فصلى الحسين (عليه السّلام) بأصحابه صلاة الفجر، ثم حمد اللّه وأثنى عليه وصلى على النبي واله، وقال لأصحابه:

ـ إن اللّه قد أذن في قتلكم اليوم وقتلي، وعليكم بالصبر.
ثم دعا الحسين (عليه السّلام) بفرس رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) وأسمه «المرتجز»، وعبّأ أصحابه، وكان عددهم اثنين وثلاثين فارساً وأربعين راجلا.
فجعل زهير بن القين على الميمنة وحبيب بن مظاهر على الميسرة وثبت هو وأهل بيته في القلب وأعطى رايته أخاه العباس (عليه السّلام).
وأمر الحسين (عليه السّلام) أصحابه أن يجعلوا البيوت في ظهورهم وأن يشعلوا النار في الحطب الذي وضعوه في الخندق حتى لا يأتيهم العدو من ورائهم.
فلما تَمَّ لهم ذلك نظروا فاذا بعمر بن سعد قد أقبل عليهم في جيشٍ من أكثر من ثلاثين ألفاً وقد جعل عمرو بن الحجاج الزبيدي على الميمنة وشمر بن ذي الجوشن على الميسرة وعزرة بن قيس على الخيل وشبث بن ربعي على الرجالة وأعطى الراية ذويداً مولاه.
وكان على ربع أهل المدينة عبداللّه بن زهير الأزدي وعلى ربع مذحج وأسد عبدالرحمن بن أبي سبرة الجعفي وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث الكندي وعلى ربع تميم وهمدان الحر بن يزيد الرياحي التميمي.
وعندما اقتربت خيل عمر بن سعد، رفع الحسين (عليه السّلام) يديه إلى السماء ودعا قائلا:
ـ اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدَّة، وأنت لي في

كل أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من هَمّ يضعُف فيه الفؤاد وتَقلُّ فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك رغبةً مني عمَّن سواك، ففرَّجتَه وكشفتَهُ. فأنت وليُّ كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة.

وأقبلت عساكر ابن سعد، وأخذوا يجولون حول الخيام. فلما أبصروا النار تضطرم في الحطب الموضوع في الخندق خلف الخيام خرج منهم رجل يركض على فرسه وهو كامل الأداة. فمر على الحسين (عليه السّلام) وأصحابه ولم يكلّمهم. وألقى نظرة على الخيام والحطب الذي تضطرم فيه النار خلفها، فقفل راجعاً، ونادى بأعلى صوته:

ـ ياحسين.. استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة..!

فقال الحسين (عليه السّلام) لأصحابه:

ـ من هذا..؟ كأنه شمر بن ذي الجوشن..؟!

فأجابوا:

ـ نعم، أصلحك اللّه، هو هو.

فقال له (عليه السّلام):

ـ يا ابن راعية المعزى أنت أولى بها صِلِيّا..!

فاستأذنه مسلم بن عوسجة قائلاً:

ـ يا ابن رسول اللّه، جعلتُ فداك، ألا أرميه بسهم فإنه قد أمكنني وليس يسقط مني سهم، فالفاسقُ مِن أعتى الجبارين..!

فقال (عليه السّلام):

ـ لاترمه، فاني أكره أن أبدأهم بقتال.
ولما دنا منه القوم، دعا الحسين (عليه السّلام) براحلته فركبها، ثم نادى بصوت يسمعه جُلُّ الناس:
ـ أيها الناس.. اسمعوا قولي ولاتعجلوني حتى أعظكم بما هو حق لكم عليّ وحتى أعتذر لكم من مقدَمي عليكم. فان قبلتم عذري وصَدَّقتم قولي وأعطيتموني النَّصف كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل. وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النَّصف من أنفسكم فأجمِعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غُمة ثم اقضوا إليّ ولاتنظرون. إن وليي اللّه الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين.
فلما سمع النساء كلامه صحن وأعولن وبكت بناته وارتفعت أصواتهن.
فأرسل الحسين (عليه السّلام) أخاه العباس وابنه علياً الأكبر (عليهما السّلام) وقال:
ـ أسكتاهن، فلعمري ليكثرنّ بكاؤهن..!
فلما سكتن، واصل الحسين (عليه السّلام) خطبته، فحمد اللّه وأثنى عليه وذكره بما هو أهله، وصلى على محمد واله وعلى ملائكة اللّه وأنبيائه بمنطق لم يُسمع أبلغ منه. ثم قال:
ـ أما بعد. فانسبوني وانظروا مَن أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يَحِلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألستُ ابن بنت نبيكم وابن وصيّه وابن عمه وأول المؤمنين المصدق لرسول اللّه بما جاء من عند ربه..؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمي؟ أوليس جعفر الطيار في

الجنة بجناحين عمي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) قال لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟!

فان صدقتموني بما أقول، وهو الحقّ، واللّه ما تعمدتُ كذبا منذ علمت أن اللّه يمقت عليه أهله ويضرّ به من اختلفه. وإن كذبتموني، فانّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبداللّه الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) لي ولأخي. أمَا في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي؟!

فصاح شمر:

ـ هو يعبد اللّه على حرف إن كان يدري ما يقول..!

فقال له حبيب بن مظاهر:

ـ واللّه إني لأراك تعبدُ اللّه على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنك صادقٌ ما تدري ما يقول، قد طبع اللّه على قلبك..!

وواصل الحسين (عليه السّلام) خطبته فقال:

ـ فان كنتم في شك من هذا أفتشكون أني ابن بنت نبيكم؟ فواللّه ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولافي غيركم! ويحكم! أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلته؟ أو مالٍ لكم استهلكتُه؟ أو بقصاصٍ من جراحة؟!

فسكتَ القوم ولم ينطقوا.

فنادى الحسين (عليه السّلام):

ـ ياشبث بن ربعي، وياحجار بن أبجر، وياقيس بن الأشعث، ويايزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن قد أينعتِ الثمار وأخضرَّ الجناب وإنما تقدم على جندٍ لك مجنّد فأقبل؟!

فأجابوا في صوت واحد:

ـ لم نفعل..!

فقال (عليه السّلام):

ـ بلى والله لقد فعلتم.

ثم ناشد الناس قائلاً:

ـ أيها الناس، إذ كرهتموني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض..!

فقال له قيس بن الأشعث:

ـ أوَلا تنزل على حكم بني عمك؟ فانهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه.

فأجابه (عليه السّلام):

ـ أنت أخو أخيك..! أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟! لا والله لاأعطيهم بيد إعطاء الذليل ولاأفرُّ فرار العبيد..!

ثم نادى (عليه السّلام):

ـ عباد الله، إني عُذتُ بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبّر لايؤمن بيوم الحساب..!

ثم أناخ الحسين (عليه السّلام) راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها.

وفجأةً.. زحف القوم نحوه..!

فبرز لهم زهير بن القين على فرس ذنوب شاك في السلاح وقال:

ـ يا أهل الكوفة! نذار لكم من عذاب اللّه نذار!

إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دينٍ واحد وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السف، وأنتم للنصيحة مِنّا أهل، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكُنّا أمة وكنتم أمة..! إنّ اللّه قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيداللّه بن زياد، فانكم لاتدركون منهما إلا سوءا، يُسمِلان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه.

فأخذ القوم يسبونه ويمدحون ابن زياد، وصاحوا:

ـ واللّه لانبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيداللّه بن زياد سلما.

فواصل زهير نصحه لهم قائلاً:

ـ ياعباد اللّه، إنّ ولد فاطمة (عليها السّلام) أحق بالود والنصر من ابن سمية! فان لم تنصروهم فأعيذكم باللّه أن تقتلوهم..!

فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم فأخطأه وقال:

ـ اسكت، أسكت اللّه نأمتك! لقد أبرمتنا بكثرة كلامك..!

فأجابه زهير معنّفا:

- يا ابن البوّال على عقبيه! ما إياك أخاطب، أنما أنت بهيمة..! فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم!!

فأنذره شمر وقال مخوّفاً إياه:

- إن اللّه قاتلك وصاحبك عن ساعة..!

فاستنكر زهير قوله، وقال:

- أفبالموت تخوفني؟ فواللّه لَلموتُ معه أحبُّ إليّ مِن الخلد معكم..!

ثم حذَّر القوم قائلا:

- يا عباد اللّه، لايغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه! فواللّه لاتنال شفاعة محمدٍ (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم) قوماً أراقوا دماء ذريته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذبَّ عن حريمهم.

فدعاه رجل من أصحاب الحسين (عليه السّلام) قائلاً:

- إن أبا عبداللّه يقول لك أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن ال فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ..!

فعاد زهير إلى مكانه على الميمنة.

٤١

وزحف عمر بن سعد برجاله فأحاطوا بالحسين (عليه السّلام)

حتى جعلوه في مثل الحلقة.

فخرج (عليه السّلام) راكباً فرسه حتى أتى القوم فاستنصتهم، فأبَوا أن ينصتوا.

فقال لهم:

ـ ويلكم..! ما عليكم أن تنصتوا إليّ وتسمعوا قولي؟

إنما أدعوكم إلى سبيل الرشاد. فمن أطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلَكين، وكلكم عاصٍ لأمري غير مستمعٍ قولي، فقد مُلِئَت بطونكم من الحرام وطبع على قلوبكم! ويلكم ألا تنصفون؟ ألا تسمعون؟!

فتلاوم أصحاب عمر بن سعد وقالوا:

ـ أنصتوا له..!

فقال (عليه السّلام) وقد رآهم أحجموا عن الحق وأصروا على الباطل:

ـ تبّاً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا نارا اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولاأمل أصبح لكم فيهم؟! فهلاّ لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لَمّا يُستحصف..؟! ولكن أسرعتم إلينا كطيرة الدبا، وتداعيتم علينا كتهافت الفراش، فسحقاً لكم ياعبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ومحرفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفيء السُّنَن!! أهؤلاء تعضدون، وعنّا

تتخاذلون؟! أجل، والله غدرٌ فيكم قديم وَشَجَت عليه أصولكم وتأزَّرَت عليه فروعكم، فكنتم أخبث ثمرٍ شجا للناظر وأُكلة للغاصب! ألاَ وإن الدعيّ ابن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السِّلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجورٌ طابت وجدودٌ طهرت وأنوفٌ حميّة ونفوسٌ أبيّة مِن أن تُؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام!! ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلّة العدد وخذلان الناصر..!.

ثم أوصل الحسين (عليه السّلام) كلامه بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

فان نَهزم فهزّامون قدما ... وإن نُغلب فغيرُ مُغَلَّبينا
وما إن طبّنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموتُ رفّع عن أناسٍ ... كلاكله أناخ بأخَرينا
فأفنى ذلكم سرواة قومي ... كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقي الكرام إذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

وتابع الحسين (عليه السّلام) خطبته قائلاً:

- ثم وأيم الله لاتلبثون بعدها إلا كريث ما يُركب الفرس، حتى تدور بكم الرحى وتقلق بكم قلق المحور، عهدٌ عَهِدَهُ إليّ أبي (عليه السّلام) عن جدي رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم). فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غُمّة ثم اقضوا إليّ ولاتُنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذٌ بناصيتها، إن

ربي على صراطٍ مستقيم.

ثم رفع (عليه السّلام) يده نحو السماء وقال:

- اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسَلِّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة، فانهم كذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

ثم قال (عليه السّلام):

- أين عمر بن سعد؟ ادعوا لي عمر!

فدُعي له، وكان كارهاً لايحبُّ أن يأتيه.

فقال له الحسين (عليه السّلام):

- ياعمر.. أتقتلني بزعم أن يوليك الدعيّ ابن الدعيّ بلاد الري وجرجان؟! واللّه لاتتهنّأ بذلك أبدا..! عهداً معهوداً فاصنع ما أنت صانع، فإنّك لاتفرح بعدي بدنيا ولاآخرة، وكأني برأسك على قصبة قد نُصبت بالكوفة يتراماه الصبيان ويتخذونه غرضاً بينهم..!!

فغضب عمر بن سعد وصرف وجهه عن الحسين (عليه السّلام)، وانسحب إلى أصحابه.

٤٢

فلما رأى الحر بن يزيد ما حدث وسمع ما قيل، فانه اقترب من ابن سعد، وقال له:

ـ أمقاتلٌ أنت هذا الرجل..؟

فأجابه:

ـ أي واللّه قتالاً أيسَرُهُ أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي..!

فسأله:

ـ أفمالكم فيما عرضه عليكم رضا..؟

فأجاب عمر:

ـ أما لو كان الأمر إليّ لفعلت. ولكن أميرك قد أبى!

فتركه الحر، وأقبل حتى وقف من الناس موقفاً ومعه رجل من قومه يدعى قرة بن قيس. فقال له:

ـ ياقرة.. هل سقيت فرسك اليوم..؟

قال:

ـ كلا.

فقال:

ـ أما تريد أن تسقيه؟!

فظن قرة أن الحر يريد أن يتنحَّى فلايشهد القتال، ولم يرغب أن يراه وهو يفعل ذلك.

فأجابه:

ـ لم أسقه. وأنا منطلق فأسقيه.

فلما انطلق قرة، أخذ الحر يدنو من الحسين (عليه السّلام) قليلاً فقليلا.

فسأله المهاجر بن أوس:

ـ ما تريد أن تصنع يا حر؟ أتريد أن تحمل؟!

فلم يجبه الحر وأخذته رعدة.

فشك المهاجر في موقفه وقال:

ـ إن أمرك لمريب! والله ما رأيت منك في موقفٍ قط مثل هذا..! ولو قيل لي مَن أشجع أهل الكوفة ما عدوتك..! فما هذا الذي أرى منك؟!

فقال الحر:

ـ إني والله أخيِّرُ نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطِّعت وحُرقت..!

ثم لكز فرسه قاصداً الحسين (عليه السّلام) وهو مطأطىء الرأس ويده على رأسه ودعا قائلاً:

ـ اللهم إليك أنبت، فتُب عليّ، فقد أُرعَبتُ قلوب أوليائك وأولاد بنت نبيك.

فلما لحق بالحسين (عليه السّلام)، قَلَبَ ترسه، وسلَّم عليه وقال:

ـ جعلتُ فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستُك عن الرجوع وسايرتُك في الطريق وجَعجَعتُ بك في هذا المكان. وما ظننتُ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم ولايبلغون منك هذه المنزلة..! والله لو علمتُ أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت منك الذي ركبت! وإني تائبٌ إلى الله مما صنعت، أَفَتَرى لي توبة؟!

فأجابه (عليه السّلام) بصدر رحب:

ـ نعم، يتوب اللّه عليك ويغفر لك، فانزل..!

فأطرق الحر استحياءً وقال وقد عزم على الشهادة:

ـ أنا لك فارساً خيرٌ مني راجلا، أقاتلهم على فرسي ساعة، وإلى النزول يصير آخر أمري..!

فوافقه الحسين (عليه السّلام) وقال:

ـ فاصنع رحمك اللّه ما بدا لك.

فدنا من الحسين (عليه السّلام) وقال له:

ـ لمّا وجّهني ابن زياد إليك، خرجت من القصر، فنوديت من خلفي: أبشر ياحرُّ بخير. فالتفتّ فلم أر أحدا..! فقلت: واللّه ما هذه بشارة وأنا أسير إلى الحسين..!!

فقال له (عليه السّلام):

ـ لقد أصبتَ خيرا.

فاستقدم الحر أمام الحسين (عليه السّلام) وصاح في أهل الكوفة:

ـ يا أهل الكوفة، لأِمّكم الهبل والعبر..!

أدَعوتم هذا العبد الصالح حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه، ثم عدوتم ثم عليه لتقتلوه وأمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب، فمنعتموه التوجه في بلاد اللّه العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لايملك لنفسه نفعاً ولايدفع عنها ضرا، وحَلأْتموه ونساءه وصبيته وأهله عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ

فيه خنازير السواد وكلابه، وها هم قد صرعهم العطش؟! فبئس ما خلَفتُم محمداً في ذريته! لاسقاكم اللّه يوم الظمأ الأكبر..!!
فحمل عليه رجال عمر بن سعد ورموه بالنبل. فعاد ووقف أمام الحسين (عليه السّلام) ليحميه ويدفع عنه.

٤٣

ونادى عمر بن سعد مولاه حامل رايته وقال:
- ياذويد.. ادنُ رايتك.
فأدناها.
ثم وضع ابن سعد سهمه في كبد قوسه، ورمى، وقال:
- اشهدوا لي عند الأمير ابن زياد أني أول من رمى!
وانهمرت السهام على الحسين (عليه السّلام) وأصحابه.
فعندئذ أذن (عليه السّلام) لأصحابه بالقتال قائلاً لهم:
- هيّا رحمكم اللّه إلى الموت الذي لابد منه فان هذه رسل القوم إليكم..!
وقاتل الحسين (عليه السّلام) وأصحابه أشد قتال خلقه اللّه، فقتلوا جَمعاً كبيراً من جنود ابن سعد. وما زالوا يكرُّون ويفرّون كالليوث، فما حملوا على جانبٍ من جوانب العدو إلا وكشفوه، حتى أصابوا منهم مقتلة عظيمة.

فلما رأى عزرة بن قيس ـ آمر الخيالة ـ ضراوة قتال الحسين (عليه السّلام) وأصحابه وشدة مراسهم وقوة بأسهم استنجد بعمر بن سعد قائلاً:

ـ أما ترى ما تلقى خيلي منذ اليوم من هذه العدّة اليسيرة؟! إبعث إليهم الرجالة والرُّماة..!

فأمدَّهُ ابن سعد بالمجففة والرجالة وخمسمائة من الرماة. فحملوا جميعاً على جيش الحسين (عليه السّلام)، فما انجلت الغبرة إلا عن خمسين شهيداً من أصحاب الحسين (عليه السّلام).

ولما كانوا يقابلون أعداءهم من وجه واحد لتقارب خيامهم وأبنيتهم فإنّ ابن سعد أمر بحرق الخيام.

فأقبل رجاله يحرقون الخيام وينهبون ما فيها.

وحمل شمر بن ذي الجوشن على فسطاط الحسين (عليه السّلام) ونادى قائلاً:

ـ عليّ بالنار لأحرق هذا البيت على أهله..!

فصاحت النساء وخرجن مرتعبات من الفسطاط وهن يصرُخن..!

فانبرى له الحسين (عليه السّلام) وحمل عليه قائلا:

ـ يا ابن ذي الجوشن.. أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي..؟! أحرقَكَ الله بالنار..!

فرجع شمر عن الفسطاط وفرَّ هاربا.

وحمل زهير بن القين في جماعة من أصحابه على القوم فهزموهم وكشفوهم عن الخيام وقتلوا جماعة منهم.

ونظر الحسين (عليه السّلام) حوله، فرأى كثرة أعدائه وقلة أصحابه.
فقبض على لحيته الشريفة وقال:
ـ اشتد غضب اللّه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدّ غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم. أما واللّه لاأجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى اللّه وأنا مخضّبٌ بدمي..!!
فحينئذ رفرف طيرٌ أخضر على رأس الحسين (عليه السّلام). فرمَقَهُ الإمام (عليه السّلام) بعينٍ دامعة، فنطق الطائر وقال:
ـ يا ابن رسول اللّه.. أنا النصر، أنزَلَني اللّه تعالى إليك. وهو يخيِّرُكَ بيني وبينلقائه..!
فمسح أبو عبداللّه الحسين (عليه السّلام) على جناحي الطائر الميمون وقد سكنا، وقال:
ـ بل أختار لقاء اللّه تعالى..!!

٤٤

وظن عمر بن سعد وأصحابه أن الحسين (عليه السّلام) قد ضعف وانهار. بينما هو (عليه السّلام)، وقد اشتدّ الأمر، قد هدأت جوارحه وسكنت نفسه لأنه يرى أن الموت قنطرة تعبر بالإنسان عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم ما دام يؤمن باللّه تعالى.

فعندئذ اقترب فارس من الحسين (عليه السّلام) وأصحابه وتساءل:

ـ أفيكم حسين؟

فسكت الحسين (عليه السّلام) ولم يجبه.

فأعاد الفارس سؤاله ثانية. فلم يجبه أحد.

حتى إذا كانت الثالثة التفت الحسين (عليه السّلام) لأصحابه وقال:

ـ قولوا له..!

فأشار أحدهم ناحية الحسين (عليه السّلام) وقال للرجل:

ـ نعم. هذا الحسين. فما حاجتك؟

فنظر إليه الرجل وقال:

ـ ياحسين أبشر بالنار..!

فأجابه (عليه السّلام):

ـ كذبت..! بل أُقدم على ربٍ غفور وشفيعٍ مطاع. فمن أنت؟

فقال الفارس:

ـ إبن حوزة.

فرفع الحسين (عليه السّلام) يديه إلى السماء حتى بان بياض إبطيه وقال:

ـ اللهم حُزهُ إلى النار..!

فغضب ابن حوزة وضرب فرسه ليهجم على الحسين (عليه السّلام)، فعثر الفرس في حفرةٍ واسعة ومال ابن حوزة فعلقت قدمه بالرِّكاب ووقع رأسه في الأرض، ونفر الفرس فأخذ يدور به والقوم ينظرون مدهوشين. فركض خلفه جماعة من الرجال لينقذوه، فزاغ منهم

الفرس ولم يلحقوا به، وأخذ يضرب برأس ابن حوزة الأحجار والجذوع ويجره على الرمال حتى هلك..!

فتعجب أصحاب عمر بن سعد من سرعة إجابة دعاء الحسين (عليه السّلام)، وخرج إليه محمد بن الأشعث حانقاً وقال له:

- ياحسين.. أي حرمة لك من رسول اللّه ليست لغيرك؟!

فَتَلا الحسين (عليه السّلام):

- «إن اللّه اصطفى آدم ونوحاً وآل أبي إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذريةً بعضها من بعض».

ثم قال:

- وإن محمداً لمن إبراهيم، وإن العترة الهادية لمن آل محمدٍ (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم).

فقال ابن الأشعث مجادلاً:

- ولكنك أضللت الناس وأذللت نفسك وأصحابك!

فرفع الحسين (عليه السّلام) رأسه إلى السماء وقال:

- اللهم أرِ محمد بن الأشعث ذلاً في هذا اليوم لاتعزّه بعده أبدا..!

فغضب ابن الأشعث وعاد إلى معسكره وقد ركبه العناد.

فما هي إلا ساعة حتى عرض له عارض، فانتحى عن القوم ناحية وجلس يتبرز. فسلط اللّه عليه عقرباً فلدغه وصرعه في التو..!

فعثر عليه أصحابه ميتاً مكشوف العورة..!!

٤٥

وأخذت الحميّة أصحاب عمر بن سعد واشتعلت نار الحقد والضلال في صدورهم لمّا شاهدوا ما جرى لابن حوزة وابن الأشعث.

فخرج يسار مولى زياد بن أبي سفيان، وسالم مولى عبيداللّه بن زياد، وصاحا:

- من يبارز؟ ليخرج إلينا بعضكم..!

فوثب حبيب بن مظاهر وبرير بن خضير.

فقال لهما الحسين (عليه السّلام):

- اجلسا.

فقام عبداللّه بن عمير الكلبي فقال:

- يا أبا عبداللّه، رحمك اللّه، ائذن لي لأخرج إليهما.

فرآه الحسين (عليه السّلام) رجلاً آدمَ طويلاً شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين، فقال:

- إني لأحسبه للأقران قتّالا. اخرج إن شئت.

فخرج إليهما.

فقال له يسار:

- من أنت؟ انتسب لنا.

قال:

ـ أنا عبدالله بن عمير الكلبي من بني عليم.

فقال:

ـ لانعرفك..!

قال:

ـ فأنا الذي نزلت الكوفة ومعي امرأتي أم وهب، واتخذت عند بئر الجعد من همدان دارا.

فأجابه يسار متبجحا:

ـ فما زلنا لانعرفك..! ليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مظاهر أو برير بن خضير.

وكان يسار متقدماً أمام سالم وقد وقف مستعداً للمبارزة وهو يستعرض بسيفه ويأتي بحركات غريبة..!

فغضب ابن عمير وتقدم منه قائلاً:

ـ يا ابن الفاعلة! وبك رغبةٌ عن مبارزة أحد من الناس ولايخرج إليك أحد منهم إلا وهو خيرٌ منك!!

ثم شَدَّ عليه وأخذ يضرب به بسيفه.

فبينما هو مشتغل به إذ هجم عليه سالم.

فصاح أصحاب الحسين (عليه السّلام):

ـ قد رهقك العبد..!

فلم يأبه، وظل يضرب يسار حتى قتله.

فبادره سالم بضربة من سيفه فاتقاها بن عمير بيده فأطارت أصابع كفه اليسرى.

فاستدار في خفة ومال على سالم ووجه إليه ضربة قاصمة أتت عليه..!

وعاد ابن عمير وقد قَتَل العبدين وخلَّفَهُما وراءه غارقَين في الدماء وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا ابن كلبِ
حسبي بيتي في عَلَيم حسبي
إني امرؤ ذو مرّة وعصبِ
ولست بالخوّار عند النكبِ
إني زعيم لك أمّ وهبِ
بالطعن فيهم مقدماً والضربِ
ضرب غلامٍ مؤمن بالربِّ

ثم ما لبث ابن عمير أن حمل على جنود ابن سعد فقتل منهم نحو تسعة عشر فارساً وعشرين راجلاً.

فما زال يقاتل حتى قُطعت أصابع يده اليمنى ولم يستطع أن يقبض على سيفه. فسقط منه السيف وأحاط به الأعداء فقتلوه.

فسارت إليه امرأته وجلست بجواره وانحنت عليه وأخذت تمسح التراب عن وجهه وتقول:

ـ لقد بيّضت وجهي بشهادتك بين يدي أبي عبدالله، هنيئاً لك الجنة..!

ورفعت رأسها إلى السماء وقالت:

ـ أسأل اللّه الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك.

فرآها شمر بن ذي الجوشن، فأمر غلامه رستم فهجم عليها وضربها بعمود على رأسها، فلحقت بزوجها..! وكانت أول أمرة قتلت في عسكر الحسين (عليه السّلام).

٤٦

ثم خرج يزيد بن معقل من بين أصحاب ابن سعد وصاح مخاطباً برير بن خضير سيد القُرّاء:

ـ يابرير بن خضير.. كيف ترى اللّه صنع بك؟

فأجابه برير:

ـ صنع بي خيراً ـ واللّه ـ وصنع بك شرا.

قال:

ـ كذبت. وقبل اليوم ما كنت كذابا..! هل تذكر وأنا أُماشيك في بني لوذان وأنت تقول: إن عثمان بن عفان كان على نفسه مسرفا، وإن معاوية بن أبي سفيان ضال مضل، وإن إمام الهدى والحق علي بن أبي طالب؟

فقال برير مؤكدا:

ـ أشهد أن هذا رأيي وقولي.

فقال يزيد:

ـ فاني أشهد أنك من الضالين.

فدعاه برير إلى المباهلة قائلاً:

ـ هلمّ أُباهلك، ولندعُ اللّه أن يلعن الكاذب وأن يقتلَ المحقُّ المبطلَ.

فخرجاو تباهلا.

ثم برز كل منهما لصاحبه، فاختلفا ضربتين.

فكانت ضربة يزيد خفيفة لم تضر شيئا. وكانت ضربة برير شديدة قدّت مغفر يزيد وبلغت الدماغ فخر كأنما هوى من حالق وسيف برير ثابت في رأسه..!

فحمل عليه رضي بن منقذ العبدي واعتنقه، فاعتركا ساعة. فغلبه برير وطرحه أرضاً وقعد على صدره.

فصاح العبدي طالباً النجدة:

ـ أين أهل المصاع والدفاع؟

فهبّ إليه كعب بن جابر الأزدي لينصره.

فحذره عفيف بن زهير، وكان بجانبه، قائلا:

ـ ياكعب، إن هذا برير بن خضير القارىء الذي كان يُقرئنا القرآن في مسجد الكوفة..!

فلم يحفل بكلامه، وحمل على برير بالرمح حتى وضعه في ظهره. فلما وجد برير مسَّ الرمح برك على العبدي وقطع طرف أنفه. فطعنه الأزدي حتى ألقاه عنه وقد غيّب سنان الرمح في ظهره، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله.

فلما فاضت روح برير إلى بارئها، نهض العبدي غير مصدق أنه نجا وهو ينفض التراب عن رأسه وملابسه. ونظر إلى برير وهو مخضب بدمائه، ثم التفت إلى الأزدي وقال في خضوع ومهانة:

ـ لقد أنعمتَ عليّ يا أخا الأزد نعمة لن أنساها لك أبدا..!!

٤٧

واستأذن عمرو بن قَرَظة الأنصاري الحسين (عليه السّلام) في القتال، فأذن له.

فركض بفرسه وأخذ يقاتل قتال الأبطال الصناديد ويجاهد جهاد المشتاقين إلى الجزاء حتى قَتَل جمعاً كثيراً من عساكر ابن سعد.

فراحوا يرمون الحسين (عليه السّلام) بالسهام والأنصاري يتّقيها بيده ويحمل عليهم وهو يرتجز:

قد عَلِمَت كتيبةُ الأنصارِ
أني سأحمي حوزة الذّمار

ضربَ غلامٍ غير نكسٍ شاري
دون حسينٍ مهجتي وداري

وظَلَّ يقاتلُ ويردُّ السهام حتى أثخن بالجراح.

فالتفت إلى الحسين (عليه السّلام) وقال:

ـ يا ابن رسول الله.. أوَفَيت؟

فقال له (عليه السّلام):

ـ نعم. أنت أمامي في الجنة. فاقرأ رسول اللّه عني السلام وأعلمه أني في الأثر.

فأوغل ابن قرظة في القوم يفريهم بسيفه ويفرقهم، حتى اجتمع عليه جماعة وأحاطوا به فقتلوه.

وكان أخوه علي بن قرظة في جيش عمر بن سعد، فغضب لمقتله، ونادى:

ـ ياحسين.. ياكذاب يا ابن الكذاب..! أضلَلتَ أخي وغررته حتى قتلته..!

فصاح الحسين (عليه السّلام):

ـ إن اللّه لم يُضِلّ أخاك، ولكنه هداه وأضَلَّك! فاشتد غضبه وقال مهدداً:

ـ قتلني اللّه إن لم أقتلك أو أموت دونك..!

وحمل على الحسين (عليه السّلام) يريد قتله، فاعترضه نافع بن هلال المرادي فطعنه، فأسرع عائداً إلى أصحابه، واستنقذوه.

فأمر ابن سعد أصحابه أن يحملوا، فحملوا بعنف.

وتصدى لهم أصحاب الحسين (عليه السّلام)، وفيهم الحر بن يزيد الرياحي وقد تقدم على فرسه شاهراً سيفه وهو يتمثّل بقول عنترة:

مازلتُ أرميهم بثغرة نحره

ولبانه حتى تسربل بالدمِّ

فأبصر به الحصين بن تميم، فقال ليزيد بن سفيان التميمي:
ـ قد كنت تقول عندما التحقَ الحرُّ بالحسين: لو لحقتُهُ لأتبعته بالسنان..!
وأشار إلى الحر قائلاً:
ـ فهذا الحر الذي كنت تتمنى.
فنظر يزيد وقال:
ـ نعم.
وبرز إلى الحر قائلاً:
ـ هل لك ياحر في المبارزة..؟
فأجابه الحر:
ـ نعم. قد شئت.
فما لبث الحر أن وجه إليه ضربة صاعقة أتت عليه..!
وجال الحر بفرسه وهو يرتجز:

إنـي أنـا الحـرُّ ومأوى الضيـف
أضـرب فـي أعناقكم بالسيفِ
عن خير مـن حَلَّ بأرض الخَيفِ
أضربـكـم ولا أرى مـن حيـفِ

فتتابع عليه الرماة رشقا بالنبل، فعقروا فرسه.
فوثب عنه الحر كالليث والسيف في يده وهو يقول:

إن تعقروا بـي فأنـا ابـن الحـر
أشجـع مـِن ذي لـبـدٍ هـزبـرِ

وجعل يضربهم بسيفه حتى قتل نحو أربعين رجلا.

وكان يحمل هو وزهير بن القين معاً، فاذا حمل أحدهما وغاص فيهم حمل الآخر حتى يخلصه. ففعلا ذلك ساعة حتى أخذ القوم يفرّون من أمامهم مذعورين، والحر يرتجز:

إني أنا الحر ونجل الحرِّ أشجع من ذي لبد هزبر

ولست بالجبان عند الكرِّ لكنني الوقَّافُ عند الفرِّ

فحمل الرجالة على الحر وأحاطوا به من كل جانب وتكاثروا عليه وطعنوه بالرماح والسيوف حتى سقط.

فاحتمله أصحابه وبه رمق حتى وضعوه بين يدي الحسين (عليه السّلام) ودمه يشخب.

فأخرج (عليه السّلام) منديله وشد به رأسه، وانحنى عليه وهو يقول:

ـ بخٍ بخٍ لك ياحر..! أنت الحرّ كما سمتك أمك!

أنت الحرّ في الدنيا والآخرة..!

وما هي إلا لحظات حتى لفظ أنفاسه بين يدي الحسين (عليه السّلام).

٤٨

وكان بين أصحاب الحسين (عليه السّلام) رجل اسمه وهب بن حباب الكلبي، وهو غير عبدالله بن عمير الكلبي، وكان نصرانياً فأسلم على يد الحسين (عليه السّلام) هو وأمه وزوجته وانضموا إليه في

الطريق.

فلما رأت أمه تكالب الأعداء على الحسين (عليه السّلام)، قالت له:

ـ هيا يابنيّ فانصر ابن بنت رسول اللّه.

فأجابهاقائلاً:

ـ أفعل يا أماه ولا أُقَصِّر.

فبرز وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا ابن الكلبي

سوف تروني وترون ضربي

وحملتي وصولتي في الحربِ

أُدرك ثاري بعد ثار صحبي

وأدفع الكرب أمام الكربِ

ليس جهادي في الوغى باللعبِ..!

ثم حمل على القوم، ولم يزل يقاتل حتى قتل منهم جماعة.

فرجع إلى أمه وزوجته وقال:

ـ يا أماه.. أرضيتِ..؟

فقالت تحفزه:

ـ ما رضيت حتى تُقتل بين يدي الحسين..!

فتعلقت به زوجته وهي تقول:

ـ باللّه عليك لاتفجعني بنفسك..!

فجذبتها أمه وقالت له:

ـ اعزب يابنيّ عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك تنل شفاعة جده يوم القيامة.

فأسرع راجعاً، وظَلَّ يقاتل حتى قُطعت يده.

فلما رأته زوجته وقد سال دمه، قامت فشدّت عموداً من الخيمة وأسرعت به نحوه وهي تحثّه قائلةً:

ـ فداك أبي وأمي. قاتل دون الطيبين حرم رسول اللّه.

فأقبل عليها يردُّها إلى النساء.

فأخذت بطرف ثوبه وقالت:

ـ لن أعود أو أموت معك..!!

فقال لها متعجباً:

ـ كنت تَنهَيني عن القتال والآن تطلبين الموت معي؟!

فقالت وهي تبكي:

ـ ياوهب.. إن واعية الحسين كسرت قلبي..!

فسألها:

ـ وماذا قال؟

فأجابت:

ـ سمعته ينادي أمام باب خيمته: واغربتاه..! واقلة ناصراه..! أما من ذابّ يذبُّ عنّا..؟ أما من مجير يجيرنا؟!

فبكى وهب. واستنجد بالحسين (عليه السّلام) قائلا:

ـ ياسيدي رُدَّها..!

فقال لها الحسين (عليه السّلام):

ـ جُزيتم من أهل بيت خيراً. ارجعي إلى النساء يرحمك اللّه فليس على النساءقتال.

فأطاعتهوانصرفت.

فلم يزل وهب يقاتل حتى قتله الأعداء، ثم احتزّوا رأسه ورموا به إلى الحسين(عليهالسّلام)..!!

٤٩

ثم برز جون مولى أبي ذر الغفاري، وكان عبداً أسود، فتوجَّه إلى الحسين (عليه السّلام)، وقال:

ـ يا ابن رسول اللّه أتأذن لي في القتال؟

فقال له الحسين (عليه السّلام):

ـ أنت في إذن مني، فإنما تبعتنا للعافية، فلاتبتلِ بطريقتنا.

فقال جون مستعطفاً:

ـ يا ابن رسول اللّه، أنا في الرَّخاء ألحسُ قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؟! واللّه إنّ ريحي لنتن، وإنّ حسبي للئيم، وإن لوني لأسود، فتنفّس عليّ بالجنة، فيطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيَّض وجهي! لا واللّه لاأفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم.

فأذن له (عليه السّلام) ودعا له قائلاً:

ـ فاخرج، بيَّضَ اللّه وجهك..!
فخرج مرتجزاً:
كيف ترى الكفارُ ضربَ الأسوَدِ
بالسيف ضرباً عن بني محمدِ
أذبّ عنهم باللسان واليدِ
أرجو به الجنة يوم الموردِ
ثم حمل على جيش الكفار فقتل منهم خمسة وعشرين رجلا.
فصاح رجلٌ من أصحاب ابن سعد:
ـ ويحكم..! أيفري فيكم هذا العبد الأسود بسيفه وتهابوه؟!
فبينما كان مشتغلاً بضرب جماعةٍ أمامه، تسلَّلَ إليه فارسٌ، وطعنه بالسيف من خلفه فقتله.
فأسرع إليه الحسين (عليه السّلام) ووقف عليه يدعو له:
ـ اللهم بيّض وجهه، وطيب ريحته، واحشره مع الأبرار، وعَرِّف بينه وبين محمدٍ وآل محمد.
فكان الناس يمرون عليه أثناء القتال فيشمّون منه رائحة أزكى من المسك..!
ورآه على هذه الحال غلام تركي كان للحسين (عليه السّلام) اسمه «أسلم»، وكان قارئاً للقرآن، فغبطه.
فعاد إلى الحسين (عليه السّلام) وقال:
ـ ياسيدي يا ابن رسول اللّه، إن لوني لأبيض، وَلكن حسبي كحسب

صاحبي، فهَلاّ أذنت لي بالقتال ليشرف حسبي وألحق به في الجنة؟!
فابتسم الحسين (عليه السّلام) ومسح على رأسه وقال:
ـ زكّاك اللّه! إذهب فأنت مع صاحبك ومعنا في الجنة إن شاء اللّه.
فاهتزّ الغلامُ فرحاً، وانطلق إلى الأعداء وهو يرتجز:

البحرُ من طعني وضربي يصطلي
والجوُّ مـن نبلي وضربي يمتلـي
إذا حُسامي فـي يميني ينجلـي
ينشـقُّ قـلبُ الحـاسـدِ المبَـجَّلِ

وحملَ في خفة الغزال فقتل نحو سبعين رجلاً.
فاشتدّ عليه مائة من الرجالة وصاح أحدهم:
ـ ويحكم أحيطوا بهذه الغلام قبل أن يبددكم بسيفه!
فأحاطوا به ومازالوا حتى صرعوه.
فأقبل إليه الحسين (عليه السّلام) ووضع خده على خده واعتنقه وبكى.
ففتح الغلام عينيه، وابتسم وهمس مفتخراً:
ـ من مثلي وابن رسول اللّه واضعٌ خدَّهُ على خَدِّي..!
ورفرفت روحه نحو السماء.!

٥٠

وحمل شمر بن ذي الجوشن بميسرته على ميسرة الحسين (عليه السّلام) وأصحابه، فتصدوا لهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، وأخذت

خيلهم على قلّتها تتوغل في صفوف الأعداء، فلاتحمل على جانب من خيل الكوفة إلاّ و كشفته.

فصاح عمرو بن الحجاج بأهل الكوفة:

ـ يا أهل الكوفة، أتدرون من تقاتلون أيها الحمقى؟!

إنكم تقاتلون أهل المصر وقوماً مستميتين! فالزموا طاعتكم وجماعتكم، ولاترتابوا في قتل من مرق من الدين وخالف أمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

فسمعه الحسين (عليه السّلام) فناداه قائلاً:

ـ أتحرِّضُ الناس عليّ ياعمرو..؟! أنحن مَرَقنا من الدين أم أنتم؟! واللّه لتعلَمُنَّ لو قُبضَت أرواحكم ومِتُّم على أعمالكم أينا مَرَق من الدين ومَن هو أولى بصلى النار!!

فأقبل ابن الحجاج في أصحابه وهجموا على عسكر الحسين (عليه السّلام) من جهة الفرات، فاقتتلوا ساعة، ومسلم بن عوسجة يطيح بالرؤوس يميناً ويسارا وهو يرتجز ويقول:

إن تسألوا عني فاني ذو لبد
مِن فرع قومٍ من ذُرى بني أسد
فمن بغانا حائدٌ عن الرَّشَد
وكافرٌ بدين جبارٍ صَمَد

فلما هدأت الحملة وانقشع الغبار، نظروا فاذا به صريعا.

فركض نحوه الحسين (عليه السّلام) ومعه حبيب بن مظاهر فوقفا عليه

ودعا له الحسين قائلاً:
ـ رحمك اللّه يامسلم. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.
واقترب منه حبيب فقال:
ـ عزّ عليّ مصرعك يامسلم. أبشر بالجنة.
وكان مسلم ما زال به رمق فأجابه بصوت ضعيف:
ـ بشّرك اللّه بالخير.
فقال له حبيب:
ـ لولا أنيّ أعلمُ أنيّ في الأثر من ساعتي هذه، لأحببت أن توصيني بكل ما أهمَّك.
فأشار مسلم إلى الحسين (عليه السّلام) وقال:
ـ أوصيك بهذا..! فقاتل دونه حتى تموت..!
فقال له حبيب:
ـ لأنعمنَّك عينا..!
فأغمض مسلم عينيه وقد اطمأنت نفسه وأسلم الروح.
فلما شاع نبأ مقتله، صاحت جاريةٌ له:
ـ واسيداه..! يا ابن عوسجتاه..!
بينما رجع أصحاب ابن سعد وهم يصيحون فرحين:
ـ قتلنا مسلم بن عوسجة! قتلنا مسلم بن عوسجة!
فَوَبَّخهم شبث بن ربعي قائلاً:

ـ ثكلتكم أمهاتكم، أما إنكم تقتلون أنفسكم بأيديكم وتذلّون أنفسكم لغيركم، أتفرحون بقتل مسلم بن عوسجة؟! أما واللّه لرُبَّ موقف له في المسلمين كريم. لقد رأيته يوم أذربيجان وقد قتل ستةً من المشركين قبل أن تلتئم خيول المسلين!!

ولما رأى ابن مسلم أباه وقد قُتل، دخل على أمه وهو يبكي، فقالت له وقد آلمتها دموعه:

ـ ما يبكيك يا ولدي..؟

فقال بلسان الرجال:

ـ أريد الجهاد..!

فنهضت أمه وشَدَّت سيفاً في وسطه وقالت:

ـ ابرز يابنيّ، فإنّك تجد رمحاً مطروحاً بين أطناب المخيم.

فخرج الغلام وأراد حمل الرُّمح فلم يتمكن لصغر سِنّه، وجعل يسحبه على الأرض سحبا..!

فأبصر به الحسين (عليه السّلام) فقال مشفقاً عليه:

ـ إن هذا الغلام قُتل أبوه، وأخاف أمّه تكره خروجه!

فقال له الغلام:

ـ ياسيدي.. إن أمي هي التي ألبستني لامَةَ الحرب!

وبرز وهو يرتجز ويقول بصوت عذب:

أميري حسينٌ ونعم الأمير   سرور فؤادِ البشير النذير
عليٌّ وفاطمة والداه   فهل تعلمون له من نظير

لـه طلعةٌ مثل شمسٍ الضحى لـه غـرة مـثـل بـدر منيـر

وأقبل يقاتل حتى قتل عدداً من الرجالة والكل ينظرون إليه في دهشة من شجاعته.

فاغتاظ أصحاب ابن سعد، وتكاثروا عليه وأحاطوا به وقتلوه. ثم احتزّوا رأسه ورموا به نحو الحسين (عليه السّلام)..!!

٥١

ثم تواصل القتال حتى انتصف النهار وحان وقت الصلاة.

فأقبل أبو ثمامة الصائدي وقال للحسين (عليه السّلام):

ـ يا أبا عبداللّه، نفسي لك الفداء، إن هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا واللّه لاتُقتل حتى أُقتل دونك، وأحبُّ أن ألقى اللّه وقد صَلّيتُ هذه الصلاة معك.

فرفع الحسين (عليه السّلام) رأسه إلى السماء وقال:

ـ نعم لقد دنا وقتها. جعلك اللّه من المصلين الذاكرين.

وقال (عليه السّلام) لأصحابه:

ـ سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلي.

فنادى حبيب بن مظاهر في القوم:

ـ لقد حان وقت الصلاة فهلا كففتم عنّا حتى نصلي!

فردَّ عليه الحصين بن نمير:

-إنها لاتُقبل..!

فأجابه حبيب:

- أتزعم أن الصلاة لاتقبل من آل رسول اللّه وأنصاره وتقبل منك ياخمّار..؟!

فحمل عليه الحصين، فلقيه حبيب وضرب وجه فرسه بالسيف، فشبّ به الفرس ووقع عنه الحصين، فاستنقذه أصحابه وحملوا على حبيب، فقتل أحدهم، فتقهقروا أمامه.

وقال الحسين (عليه السّلام) لزهير بن القين وسعيد بن عبداللّه الحنفي:

- تقدَّما أمامي حتى أصلي بكم صلاة الخوف.

فتقدّما أمامه في نحو نصفٍ من أصحابه، ووقف (عليه السّلام) يصلي بهم، والسهام والنبل تنهال عليهم، والحنفي يقي الحسين (عليه السّلام) بنفسه ويرميهم بالنبل، وكان من أمهر الرماة، حتى سقط على الأرض وبه ثلاثة عشر سهماً سوى ما لَحِقَ به من الضرب والطعن. فأخذ يجود بنفسه ويدعو:

- اللهم العنهُم لَعنَ عادٍ وثمود. اللهم أبلغ نبيك منّي السلام، وأبلغه ما لقيتُ من ألم الجراح، فإني أردت ثوابك في نُصرة ذرية نبيك.

ثم فاضت روحه.

فخرج نافع بن هلال البجلي وقاتل كليثٍ هصور، وهو يرتجز:

أنا ابن هلال البجلي * أنا على دين علي

فبرز له رجل اسمه مزاحم بن حريث وهو يقول:

ـ وأنا على دين عثمان..!

فقال له نافع موبخاً:

ـ أنت على دين شيطان..!

وأهوى بالسَّيف على عاتقه فقتله.

ثم جعل يرمي بسهام مسمومة، وقد كتب اسمه على أفواق النّبل، ويقول:

أرمي بها معلّمة أفواقها
والنفس لا ينفعها إشفاقُها

مسمومة تجري به أخفاقها
ليملأنّ أرضَها أرشاقُها

فلم يزل يرميهم ويصيب حتى نفدت سهامه.

فقبض على سيفه وأخذ يقاتل وهو يقول:

أنا الغلام اليمنيّ البجلي
ديني على دين حسين وعلي

إن أُقتَلِ اليومَ فهذا أملي
فذاك رأيي وألاقي عملي

فقتلَ اثني عشر رجلاً سوى مَن جَرح.

فانهالوا عليه يضربونه حتى كسروا عضديه. وأمسك به شمر ومن معه وساقوه أسيراً إلى ابن سعد.

فقال له ابن سعد:

ـ ويحك يانافع، ما حملك على ما فعلت بنفسك؟!

فأجابه:

ـ إن ربي يعلم ما أردت.

ثم قال والدماء تسيل على وجهه ولحيته:

ـ لقد قتلتُ منكم اثني عشر رجلاً غير مَن جرحت، وما ألوم نفسي على الجهد. ولو بقيَت لي عضدٌ وساعد ما أسرتموني..!

فقال شمر لابن سعد:

ـ اقتله يرحمك اللّه..!

فالتفت إليه نافع وقال معنّفاً:

ـ أوَ تُقتَلُ الأسرى؟!

فلم يحفلا به، وقال ابن سعد لشمر:

ـ أنت جئت به، فإن شئت فاقتله.

فانتضى شمر سيفه..!

فقال له نافع:

ـ أما واللّه لو كنتَ من المسلمين لعظمَ عليك أن تلقى اللّه بدمائنا. فالحمد للّه الذي جعل منايانا على يدي شر خلقه..!

فضرب شمرٌ عنقه.

٥٢

وأدرك أصحاب الحسين (عليه السّلام) أنَ القوم لن يكفّوا عنهم

وأنّهم قد لَجّوا في عتوهم وبغيهم وطُبع على قلوبهم فلم تعد تنفع معهم موعظة ولا يؤثّر فيهم موقف.

فأقبلوا يجودون بأنفسهم الواحد تلو الآخر فداءً للحسين (عليه السّلام).

وخرج زهير بن القين وهو يرتجز:

أنا زهيرٌ وأنا ابن القَينِ
أذودكم بالسّيف عن حسينِ
إنّ حسيناً أحد السّبطينِ
من عترة البَرِّ التقيّ الزّينِ
ياليت نفسي قُسمت قسمينِ..!

وأخذ يصول ويجول بين رجال ابن سعد حتى قتل منهم خمسين رجلاً. ثم عاد إلى الحسين (عليه السّلام)، وراح يضرب على منكبه ويقول:

أقدِم هُدَيت هادياً مهديّا
فاليوم تلقى جدَّكَ النبيّا
وحسناً والمرتضى عليّا
وذا الجناحين الفتى الكميّا
وأسدَ اللّه الشهيدَ الحيّا

ثم ودعه قائلا:

ـ السلام عليك يا ابن رسول اللّه، ملتقانا عند جدّك رسول اللّه.

وكرَّ حاملاً على القوم، فما زال يُعمِلُ فيهم سيفه حتى قتل منهم نحو سبعين آخرين.

فشد عليه كثير بن عبدالله الشعبي، ومهاجر بن أوس التميمي وخلفهما جماعة يحمونهما، فقتلاه.

فوقف عليه الحسين (عليه السّلام) وقال:

- لايبعدك اللّه يازهير، ولعن قاتليك لعنَ الذين مُسخوا قردةً وخنازير.

وأقبل عابس بن شبيب الشاكري ومعه شوذب مولى بني شاكر، فقال له:

- ياشوذب، ما في نفسك أن تصنع؟!

فأجاب:

- ما أصنع؟! أقاتل معك دون ابن بنت رسول اللّه حتى أقتل..!

فقال له عابس:

- ذلك الظن بك، فتقدم بين يدي أبي عبداللّه حتى يحتسبك كما احتَسَبَ غيرك، وحتى أحتسبك أنا، فإن هذا يوم ينبغي لنا فيه أن نطلب الأجر بكل ما نقدرعليه، فإنه لاعمل بعد اليوم وإنما هو الحساب.

فتقدم شوذب إلى الحسين (عليه السّلام) وقال:

- السلام عليك يا أبا عبداللّه ورحمة اللّه وبركاته... أستودعك اللّه.

وحمل على القوم، فقاتل قتالاً عنيفاً، وصَرَعَ عدداً منهم، ثم قُتل.

فتقدم عابس من الحسين (عليه السّلام) وقال:

- يا أبا عبداللّه، أما واللّه ما أمسى على وجه الأرض قريبٌ ولابعيد أعزّ

عليّ ولاأحبّ إليّ منك. ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشيء أعزّ من نفسي ودمي لفعلت. السلام عليك يا أبا عبدالله. أُشهِدُ اللّه أني على هُداك وهُدى أبيك.

ثم مضى مصلتاً سيفه، وبه ضربةٌ على جبينه.

فرآه ربيع بن تميم الحارثي مقبلاً، وكان قد شاهده في الغزوات ووقف على شجاعته، فعرفه وصاح بالناس:

ـ أيها الناس! هذا أسد الأسود. هذا ابن أبي شبيب القوي، فلايخرجنّ إليه أحدٌ منكم.

فنادى عابس:

ـ ألا من رجل لرجل؟! ألاَ رجل! ألاَ رجل؟!

فلم يجرؤ أحدٌ على الخروج إليه وتحاشاه الجميع لشجاعته.

فشعر عمر بن سعد بالضّعف والهوان، وأراد أن يحسم هذا الموقف الذي فضحه. فقال لأصحابه:

ـ ارضخوه بالحجارة..!

فأخذوا يرمونه بالحجارة من كل جانب وهو يتقيها بيديه ويفتتها بسيفه. حتى إذا رأى القوم يبالغون في قذفه بالحجارة ألقى درعه ومغفره وشدّ عليهم فانهزموا بين يديه.

فلما أبصروه يطرد أكثر من مائتين أمامه أحاطوا به من كل جانب وقتلوه وقطعوا رأسه، وأخذوا يتناقلون الرأس بين أيديهم وكل منهم يقول:

ـأنا قتلته..!

ففرقهم ابن سعد قائلا:

ـ لاتختصموا.. هذا رجلٌ لم يقتله إنسان واحد..!!

٥٣

ولما رأى حبيب بن مظاهر كثرة الشهداء حوله وقلة من بقي مع الحسين (عليه السّلام)، برز إلى أهل الكوفة وهو يرتجز:

أنا حبيب وأبي مظاهرُ فارسُ هيجاءٍ وحربٍ تسعرُ
أنتم أعدُّ عدّةً وأكثرُ ونحن أعلى حجةً وأظهرُ
وأنتم عند الوفاء أغدرُ ونحن أوفى منكمُ وأصبرُ
حقاً وأتقى منكمُ وأعذرُ

وقاتل حبيب كما لم يقاتل أحدٌ حتى قَتَلَ منهم نحو سبعين رجلاً.

فحمل عليه بديل بن صريم التميمي وضربه بالسيف على رأسه، ثم حمل عليه تميمي آخر فطعنه. فسقط حبيب. وأراد أن ينهض، فضربه الحصين بن نمير على رأسه بالسيف وشجّه، فوقع. ثم نزل إليه التميمي فاحتزّ رأسه، وحمل الرأس ومضى به.

فقال له الحصين:

ـأنا شريك في قتله..!

فرد عليه التميمي:

ـ لا واللّه.. أنا قاتله..!

فتدخل ابن صريم وقال:

ـ بل أنا الذي قتلته من أول ضربة..!

فقال الحصين للتميمي:

ـ أعطني الرأس أعلقه في عنق فرسي، ليرى الناس ويعلموا أني شاركتُ في قتله، ثم خذه أنت وامض به إلى ابن زياد فلاحاجة لي فيما يعطيك..!

فرفض التميمي قائلا:

ـ كلا واللّه لأعطيك إياه..!

فلما اختلفا أشار جماعة من القوم برأي الحصين.

فأعطاه التميمي رأس حبيب بن مظاهر، فعلّقه الحصين في عنق فرسه، وجال به في العسكر، ثم أعاده إليه..!!

٥٤

ووقف الحسين (عليه السّلام) بعد مقتل حبيب بن مظاهر وأخذ يقول:

ـ عند اللّه أحتسب نفسي وحماة أصحابي.

ولّما وجد أصحاب الحسين (عليه السّلام) أن مقتل حبيب قد هدَّه وآلمه، فإنهم تنافسوا على القتل بين يديه، وأخذ يأتي الرجل بعد الآخر فيسلّم

عليه ويودّعه ويقتحم صفوف الأعداء.

فظلّوا يقاتلون ويرتجزون، ويطيحون برؤوس جنود بني أمية حتى قُتلوا عن آخرهم..!

ولم يبق مع الحسين (عليه السّلام) سوى بشير بن عمرو الحضرمي، وسويد بن عمرو بن أبي المطاع، والضحاك بن عبدالله المشرقي.

فقاتل بشير حتى قُتل.

وتقدم سويد، وكان شريفاً محبّاً للصلاة مكثراً منها، فحمل وهو يرتجز:

أقدم حسين اليوم تلقى أحمدا
وشيخك الحبر عليّاً ذا الندى

وحسناً كالبدر وافى الأسعدا
وعمك القرم الهمام الأرشدا

حمزة ليث الله يدعى أسدا
وذا الجناحين تبوّأ مقعدا

في جنة الفردوس يعلو صُعُدا

فقاتل بجدٍّ وبسالة واستمات في العراك حتى سقط مثخناً بالجراح.

فلم يزل بدون حراك، حتى سمع القوم حوله يتراكضون ويصيحون:

ـ قُتل الحسين..! قُتل الحسين..!

فتحامل على نفسه، وأخرج سكينا من خُفّه، وجعل يطعن بها حتى قتله القوم. فكان آخر قتيل من أصحاب الحسين (عليه السّلام).

عند ذلك تقدم الضحاك من الحسين (عليه السّلام) وقال:
ـ يا ابن رسول اللّه. قد علمت ما كان بيني وبينك، فقد قلت لك: أقاتلُ عنك ما رأيتُ مقاتلاً، فاذا لم أر مقاتلاً فأنا في حِلٍّ من الإنصراف.
فقلت لي: نعم. وقد قتلتُ رجلين وقطعت يد الآخر..!
فأجابه(عليهالسّلام):
ـ صدقت. جزاك اللّه خيرا. أنت في حِل، فعليك بالنجاء إن قدرت على ذلك.
فذهب الضحاك وأقبل إلى فرسه، وكان أدخلها فسطاطاً بين البيوت لّما رأى الخيل تُعقَر وقاتل راجلاً، فأخرجها من الفسطاط واستوى على متنها ثم ضربها وانطلق باحثاً عن النجاة.
فتبعه خمسة عشر فارسا حتى لحقوه بشفيّة بالقرب من شاطىء الفرات، فعرفوه، وكفوا عنه وتركوه ينجو بنفسه.
وبقى الحسين (عليه السّلام) وحده بلاأصحاب فخلص القوم إليه وإلى أهل بيته..!

٥٥

هَدَأَ غبار القتال، وساد الحذر والترقّب، وأخذ ابن سعدٍ وأصحابه ينظرون إلى الحسين (عليه السّلام) في انتظار ما سيقدم عليه.
ووقف الحسين (عليه السّلام) شامخاً بين أهل بيته، وهم ولده وولد عليّ

(عليه السّلام) وولد الحسن (عليه السّلام) وولد جعفر وولد عقيل، وهم يحيطون به مستعدّين للنزال.

فأقبل يودع بعضهم بعضا، وهم يدركون نتائج الجولة الآتية.

وكان أول من خرج منهم عليّ الأكبر بن الحسين (عليه السّلام)، وكان فتى وسيماً مِن أصبحِ الناس وجهاً وأحسنهم خلقا. وقال:

- أتأذن لي يا أبتي في القتال؟

فنظر إليه الحسين (عليه السّلام) نظرةَ الناظر إلى كبده المحترق، وأرخى جفنيه على شجا الحسرة والألم، ثم بكى ورفع سبابتيه نحو السماء، وقال:

- اللهم كن أنت الشهيد عليهم. فقد برز إليهم غلامٌ أشبَهُ الناس خَلقاً وخُلُقاً برسولك. وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه..! اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرقهم تفريقا، ومزقهم تمزيقا، واجعلهم طرائق قددا ولاتُرض الولاة عنهم أبدا، فانهم دعونا لينصرونا، ثم عَدَوا علينا يقاتلونا.

ثم رفع (عليه السّلام) صوته وتلا قوله تعالى:

- «إن اللّه اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض واللّه سميع عليم».

وصاح مخاطباً ابن سعد:

- يا ابن سعد، مالك! قطع اللّه رحمك كما قَطَعتَ رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول اللّه، ولابارَكَ لك في أمرك، وسلَّط عليك من

يذبحك بعدي على فراشك..!

ونظر إلى ولده علي الأكبر نظر الآيس وقال:

ـ تقدَّم على بركة اللّه يابنيّ.

فانطلق علي الأكبر وشدَّ على القوم وهو يرتجز:

أنا علي بن الحسين بن علي   نحن وبيتُ اللّه أولى بالنبي
تا اللّه لايحكم فينا ابن الدعي   أضرب بالسيف أحامي عن أبي
ضربَ غلامٍ هاشميٍّ علوي

فمازال يحمل على الميمنة مرة وعلى الميسرة أخرى وهم يتحاشون هجماته ويتقون ضرباته ويفرون من أمامه حتى قتل منهم مائة وعشرين فارسا.

ولّما آنهكه القتال واشتد به الظمأ، عاد إلى أبيه وسيفه يقطر دما، وقال:

ـ يا أبه.. العطش قتلني، وثقلُ الحديد أجهدني، فهل إلى شربةٍ من الماء سبيل..؟!

فبكى الحسين (عليه السّلام) وقال:

ـ واغوثاه يابني! قاتل قليلاً، فما أسرع ما تلقى جدك محمداً فيَسقيكَ شربةً لاتظمأ بعدها أبدا..!

ثم قربه إليه ومصّ لسانه وأعطاه خاتمه وقال له:

ـ ضعهُ في فمك، وارجع إلى قتال الأعداء، فإني أرجو أنك لاتمسي حتى يسقيك جدك رسول اللّه بكأسه الأوفى..!

فعاد علي الأكبر، وراح يكرُّ على أهل الكوفة كَرَّةً بعد كرة، فيخشاه

الرجالة والفرسان ويبتعدون عن طريقه.

ومازال كذلك حتى قتل منهم نحو المائتين..!

فأبصره مرّة بن منقذ العبدي وهو يصول في القوم ويجول، فقال وقد أحنقه ذلك:

ـ عليّ آثامُ العرب إن هو فعل مثل ما أراه يفعل، ومَرَّبي، إن لم أثكله أمه..!

فمر عليّ الأكبر يشدُّ على الناس بسيفه. فاعترضه العبدي وبادره بطعنة من رمحه في ظهره فانفجرت دماؤه. ثم ضربه بالسيف على رأسه ففلق هامته.

فصاح الفتى:

ـ ياأبتاه! عليك مني السلام، هذا جدي رسول اللّه يقرئك السلام ويقول لك: عجّل القدوم إلينا..!

ثم سقط، فأحاط به الأعداء وأخذوا يضربونه بسيوفهم ويطعنونه برماحهم حتى شهق شهقة وفارق الدنيا.

فأسرع إليه الحسين (عليه السّلام) ووقف عليه وقال باكياً:

ـ قتَلَ اللّه قوماً قتلوك يابُنَيّ! ما أجرأهم على الرحمان وعلى انتهاك حرمة الرسول! على الدنيا بعدك العفا..! يعز على جدك وأبيك أن تدعو فلاتجاب وتستغيث فلاتُغاث..!

ووضع خدّه على خده، ثم أخذ بكفّه مِن دمه وقذف به نحو السماء فلم تسقط منه قطرة..!

عندئذ خرجت عمته زينب (عليها السّلام) من الفسطاط وهي تصيح:
ـ ياحبيباه..! ويا ابن أُخَيّاه..!
ثم أكبَّت عليه وتفجّرت بالبكاء.
فأخذ أخوها بيدها وردَّها إلى الفسطاط، ونادى فتيانه:
ـ احملوا أخاكم.
فحملوه من مصرعه، ووضعوه داخل الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه..!

٥٦

وبرز عبدالله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب وهو يرتجز ويقول:

اليوم ألقى مسلما وهو أبي وفتية بادوا على دين النبي
ليسوا بقومٍ عُرفوا بالكذب لكن خِيارٌ وكرامُ النَّسَبِ
من هاشمِ السادات أهلُ الحسبِ

فقتَلَ ثمانية وتسعين رجلاً في ثلاث حملات.
فبينما كان يتخلل الصّفوف رصده عمرو بن صبيح الصيداوي ورماه بسهم. فوضع عبدالله يده على جبهته ليتقيه، فأصاب السهم كفه ونفذ إلى جبهته فسمرها به، فلم يستطع تحريكها. فرماه بسهم آخر، فقال:
ـ اللهم إنهم استقلونا واستذلونا فاقتلهم كما قتلونا.
فحمل عليه رجل فطعنه بالرمح في قلبه فصرعه..!

فأتى الصيداوي نحو عبدالله وقد سقط على الأرض، فنزع السهم من جوفه، ووقف يحرّك الآخر عن جبهته حتى أخذه وبقى النصل..!

وخرج محمد بن أبي سعيد بن عقيل، فقاتل حتى رماه لقيط بن ياسر الجهني بسهم فقتله.

ثم برز جعفر بن عقيل وهو يرتجز:

أنا الغلام الأبطحي الطالبي — من معشرٍ في هاشمٍ وغالبِ
ونحن حقاً سادةُ الذوائبِ — هذا حسينٌ أطيبُ الأطائبِ
مِن عترةِ البَرِّ التقيِّ الغالبِ

فقتل خمسة عشر فارساً، ثم قُتل.

وبرز عبدالرحمن بن عقيل، وهو يرتجز قائلاً:

أبي عقيل فاعرفوا مكاني — من هاشمٍ وهاشمٌ إخواني
كهولُ صدقٍ سادةُ الأقرانِ — هذا حسينٌ شامخُ البنيانِ
وسيدُ الشّيبِ مع الشبّانِ

فقتل سبعة عشر فَارسا.

فخرج إليه عثمان بن خالد الجهني، وبشر بن سوط الهمداني، فحملا عليه،فقتلاه.

وخرج إليهم عبدالله بن عقيل، فظل يقاتل حتى قتل نفرا كثيراً وأثخن بالجراح. فحمل عليه فارسان وقتلاه.

وبرز محمد بن عبدالله بن جعفر مرتجزا:

أشكو إلى الله من العدوانِ — فعالَ قومٍ في الرَّدَى عميانِ

قــد بـدَّلـوا مـعالـمَ القــرآنِ ومُحكم التـنـزيـل والتبـيـانِ

فقتل عشرة من القوم. ثم حمل عليه عامر بن نهشل التميمي فقتله.

فأسرع أخوه عون بن عبدالله بن جعفر وهو يقول:

إن تنكروني فأنا ابـن جعفـرِ شهيدِ صدقٍ في الجنان أزهرِ
يطيـرُ فيهـا بجنـاحٍ أخـضـرِ كفى بهذا شرفاً في المحشرِ

فقتل ثلاثة فرسان وثمانية عشرَ راجلاً. فحمل عليه عبدالله بن قطبة الطائي فقتله.

وخرج القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السّلام)، وكان غلاماً يافعاً، فنظر إليه الحسين (عليه السّلام) في حسرة، واعتنقه، وأخذا يبكيان.

فاستأذن عمَّهُ في المبارزة، فلم يأذن له ضنّاً به على الموت..! فلم يزل الغلام يقبل يديه ورجليه حتى أذن له.

فخرج ودموعه تسيل على خديه، ووجهه كشقّة القمر، وبيده السيف، وعليه قميص وإزار وفي رجليه نعلان.

فظل يضرب بسيفه حتى قتل ثلاثةً من أصحاب عمر بن سعد. فانقطع شسع نعله اليسرى، فوقف وسط الميدان يشد شسع نعله غير مكترث بالجموع الغفيرة..!

فبينما هو كذلك، قال عمرو بن سعيد بن نفيل الأزدي لحميد بن مسلم:

ـ والله لأشدنَّ عليه..!

فوبّخه حميد قائلا:

ـ سبحان اللّه..! وما تريد بذلك..؟! واللّه لو ضربني ما بسطت إليه يدي..! دعه.. يكفيكه هؤلاء الذين تراهم قد احتوشوه..!

فلم يأبه له عمرو، وكرر:

ـ واللّه لأشدنّ عليه..!

فما هي إلا لحظة، حتى حمل علي الغلام وهو ما زال منشغلا بشسع نعله، وضرب رأسه بالسيف ففلقه..!

فسقط الغلام على وجهه وصاح:

ـ ياعمّاه..!

فهبَّ إليه الحسين (عليه السّلام) كالبرق الخاطف، وضربَ عمرو الأزدي بالسيف، فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق..! فصاح صيحةً عالية سمعها أهل العسكر..!

فحملت خيل ابن سعد لتستنقذه، فاستقبلته بصدرها ووطأته بحوافرها حتى قضت عليه..!

وانجلى الغبار.

فاذا بالحسين (عليه السّلام) قائمٌ على رأس الغلام وهو يفحص رجليه ويقول:

ـ بُعداً لقوم قتلوك! خصمهم يوم القيامة جدك وأبوك..!

ثم انحنى عليه وهو يقول:

ـ عزّ واللّه على عمك أن تدعوه فلايجيبك، أو يجيبك فلاينفعك صوته!

هذا واللّه يوم كثر واتره وقلّ ناصره..!

ثم احتمله على صدره وعاد به ورجلاه تخطان في الأرض، فألقاه مع ابنه علي الأكبر والقتلى حوله من أهل بيته.

ورفع الحسين (عليه السّلام) طرفه إلى السماء ودعا قائلاً:

- اللهم أحصِهم عددا، واقتلهم بَدَدا، ولاتُغادِر منهم أحدا، ولاتغفر لهم أبدا..!

ثم نظر إلى أهل بيته وقال:

- صبرا يابني عمومتي، صبراً يا أهل بيتي، لارأيتم هواناً بعد هذا اليوم أبدا.

عندئذٍ تقدَّمَ أبو بكر بن الحسن، فرماه عبداللّه بن عقبة بسهم فقتله.

فلما رأى العباس (عليه السّلام) كثرة القتلى من أهله، قال لأخوته:

- تقدَّموا حتى أراكم نصحتم للّه ولرسوله. تقدّموا أمامي حتى أرثكم.

فخرجوا واحداً إثر الآخر حتى قُتلوا..!

وكانوا ثلاثة هم عبداللّه وجعفر وعثمان.

فأما عبداللّه وجعفر فقد قتلهما هانىء بن ثبيت الحضرمي.

وأما عثمان فقد رماه خولي بن يزيد الأصبحي بسهم فأضعفه. ثم شد عليه رجل من بني أبان بن دارم، فقتله وأخذ رأسه..!

٥٧

وضاق صدر العباس (عليه السّلام)، فبرز كالليث الهصور، ولوى عنان فرسه، وقد استوى على ظهره ورجلاه تخطان في الأرض وهو يحمل اللواء.

وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة. وكان وسيماً جميلاً جسيماً ويُلقّب بقمر بني هاشم والسقّاء.

ولما كان هو آخر من بقي مع الحسين (عليه السّلام)، فقد استأذنه في القتال، وقد حان دوره، وقال:

ـ يا أخي.. هل من رخصة؟

فبكى الحسين (عليه السّلام) حتى بلّت دموعه لحيته وقال له:

ـ يا أخي أنت حامل لوائي..!

فأجابه:

ـ لقد ضاق صدري وسئمت الحياة وأريد أن أردع هؤلاء المنافقين.

فقال له الحسين (عليه السّلام) وهو يسمع صياح الأطفال:

ـ فاطلب لهؤلاء الصبية قليلاً من الماء..!

فنزل العباس (عليه السّلام) عن فرسه، وأقبل فوقف أمام القوم، ونادى:

ـ ياعمر بن سعد، هذا الحسين بن بنت رسول اللّه قد قتلتم أصحابه وأهل بيته. وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى قد أحرق الظمأ قلوبهم، فاسقوهم

من الماء..!

فرد عليه شمر قائلا:

- يا ابن أبي تراب، لو كان وجه الأرض كلُّه ماءً وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة إلا أن تدخلوا في بيعة يزيد.

فعاد العباس (عليه السّلام) ليخبر أخاه. ثأثاره صراخ الأطفال وهم يصيحون:

- العطش -! العطش..!

فلم يتمالك نفسه. وامتطى فرسه، وجرَّدَ سيفه، وحمل القربة، وقصد نحو الفرات.

فأحاط به أربعة آلاف، ورموه بالنبال. فلم يحفل بهم، وأخذ يمضي واللواء يخفق على رأسه وهو يرتجز:

أنا الذي أُعرف عند الزمجره   بابن عليّ المسمى حيدره

فلم يثبتوا أمامه، وكشفهم عن المشرعة ودخل الماء.

وكان العطش قد ألهب صدره، فاغترف غرفة ليتقوى بها على القتال، فتذكر عطش أخيه الحسين والأطفال والنّسوة خلفه. فرمى الماء من يده وهو يقول:

يانفسُ من بعد الحسين هوني   وبعدهُ لاكنتِ أن تكوني

هذا الحسين شاربُ المنون   وتشربين باردَ المعينِ

تالله ما هذا فعالُ ديني   ولافعالُ صادقِ اليقينِ

وملأ القربة وحملها على كتفه اليمنى، واتخذ طريقه عائداً إلى الحسين

(عليه السّلام). فأخذوا عليه الطريق وقطعوه، وأحاطوا به من كل جانب.

فأخذ يضربهم بسيفه حتى قتل منهم ثمانين شخصاً وهو يقول:

لا أرهبُ الموتَ إذا الموتُ رقا
حتى أواري في المصاليتِ لقا
إنّي أنا العباسُ أغدو بالسقّا
ولا أخافُ الشرّ يوم الملتقى
نفسي لسبط المصطفى الطهر وِقا

ففرقهم، وظل يشقُّ طريقه.

فكمن له زيدُ بن ورقاء الجهني خلف نخلة فضربه على يمينه فقطها.

فحمل العباس (عليه السّلام) القربة على كتفه اليسرى وهو يرتجز:

والله إن قطعتمُ يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمامٍ صادق اليقينِ نجل النبيّ الطاهر الأمينِ

فالتقاه حكيم بن الطفيل وقد كمن له خلف نخلة أخرى، وعاجله بضربة على يساره فقطعها.

فضم العباس (عليه السّلام) اللواء إلى صدره حتى لايسقط وقال:

يانفسُ لاتخشَي من الكفّارِ وأبشري برحمةِ الجبارِ
مع النبي السيّدِ المختارِ قد قطعوا ببغيهم يساري
فأَصلِهم يا ربِّ حَرَّ النارِ

فتكاثروا عليه وأمطروه بالسهام من كل جانب ، فأصابت القربة

وأراقت ماءها.

وثبت سهم في صدره، وأصاب أخر عينيه.

وأقبل رجلٌ مسرعاً وبيده عمود فهوى به على رأسه وفلق هامته فسقط عن جواده..!

فصاح أبو الفضل العباس (عليه السّلام) مودعا:

ـ عليك السلام منّي يا أبا عبدالله.

فلم تمض برهة إلا والحسين (عليه السّلام) بجواره.

فوجده مقطوع اليدين مثخناً بالجراح، والقربة بجانبه فارغة من الماء وقد اخترقتها السهام.

فانحنى عليه الحسين (عليه السّلام)، فنزع السهم من صدره، وأخذ يمسح الدماء عن وجهه ولحيته.

ففاضت روحه الطاهرة بين يدي الحسين (عليه السّلام).

وغرب قمر بن هاشم..!

فتركه الحسين (عليه السّلام) في مكانه، ثم ما لبث أن حمل على أهل الكوفة حملة الفارس المقدام الذي لايحابَه ولايدافَع.

فأخذ يضربهم بسيفه يميناً وشمالا وهم يفرّون أمامه، بينما القتلى يتساقطون بالعشرات على كل جانب وهو يقول:

ـ أين تفرّون وقد قتلتم أخي؟ أين تفرّون وقد قتلتم عَضُدي؟!

واستمر يطيح بالرؤوس حتى فرّقهم وشتَّتَ شملهم.

ثم عاد (عليه السّلام) إلى خيامه حزيناً يكفكفُ دموعه.

فاستقبلته سكينة (عليها السّلام) خارجة من الخيمة، وسألته بلهفة:
ـ أين عمي؟!
فبكى الحسين (عليه السّلام) وقال:
ـ واعباساه.. وأخيّاه..!
فسمعته زينب (عليها السّلام)، فانفطر قلبها من الحزن، وصاحت:
ـ وأخاه..! واعباساه..! واضيعتنا بعدك..!
وأقبلت النساء فانخرطن في العويل والبكاء..!
فبينما الوضع على هذا الحال، خرج غلام من خباء من أخبية الحسين (عليه السّلام) وفي أذنيه درّتان. فأخذ بعود، ووقف مذعورا يتلفت يمينا ويسارا وقرطاه يتذبذبان ويلمعان تحت أشعة شمس كربلاء الحارقة.
فأقبل رجلٌ يركض بفرسه مسرعاً من بين عسكر ابن سعد، ومال على الغلام وقدَّه بالسيف..!
فصارت أمه تنظر إليه مدهوشة وهي لاتتكلّم.
وتلَفَّتَ الحسين (عليه السّلام) حوله، فوجد نفسه وحيداً بِلامعينٍ ولاناصر، بينما أجساد الشهداء من أصحابه وأهل بيته تتناثر على ساحة القتال، وقد طفت الدّماء على رمال الطف.
فوقف (عليه السّلام) ينادي القتلى بأسمائهم واحداً واحداً وهو يقول:
ـ مالي أناديكم فلاتجيبون؟ يا أبطال الصَّفا ويافرسان الهيجا، لم أدعوكم فلاتسمعون؟!
ثم صاح بأعلى صوته فاهتزت من صيحته الأرض والسماوات وقال:

ـ ألا من مغيثٍ يغيثنا؟ ألا من مجيرٍ يجيرنا؟ ألا مِن ذابّ يذب عنا..؟!
فنهض ابنه على السجاد زين العابدين (عليه السّلام) لمّا سمع استغاثة أبيه، وخرج من الفسطاط يتوكّأ على عصا وهو يُغالبُ المرض، ويَجرُّ سيفه.
فأبصر به الحسين (عليه السّلام)، فنادى العقيلة زينب (عليها السّلام) وكانت مستغرقة في البكاء وقال:
ـ احبسيه لِئَلاّ تخلو الأرض من نسل آل محمد!!
فأمسكته من يده، وأعادته إلى الفراش..!

٥٨

وجاء دور الحسين (عليه السّلام)..!
فوقف يودع أهله وعياله ويأمرهم بالسكوت ويعظهم بالصبر، وقد ارتدى جُبَّةً دكناء وعمامة موردة أرخى لها ذؤابتين، والتحفَ ببُردَة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم)، وتقلّدَ سيفه.
ثم طلب (عليه السّلام) ثوباً لا يرغب فيه أحد يضعه تحت ثيابه حتى لا يجرِّدوه منه، فانه يعلمُ أنه مقتولٌ مسلوب.
فأتَوا بثوب قصير ضيِّق، فرغب عنه قائلاً:
ـ إنه من لباس مَن ضُربت عليه الذّلة.
وأخذ ثوباً قديماً، وخَرَقَهُ وجعلَهُ تحت ثيابه، ودعا بسراويل حبرة ففرزها

ولبسها لكيلا تُسلب.

وقال:

- عليّ بولدى الرَّضيع لأودّعه..!

فأتته أخته زينب (عليها السّلام) بابنه عبدالله، فأجلسه في حجره وقبّله وهو يقول له:

- بُعداً لهؤلاء القوم إذا كان جدُّك المصطفى خصمَهم يوم القيامة..!

فأخذ الطفل يبكي من الظمأ لأنّ اللبن جَفَّ في ثدي أمه التي لم تذُق قطرة من الماء منذ أيام مع جوّ كربلاء الحار وقَيظِها الحارق.

فجاء به الحسين (عليه السّلام) إلى القوم راكباً فرسه وقال لهم:

- اسقوه جرعة من الماء فإنّه صغيرٌ لاذنب له..!

فدبَّ الخلاف بين عسكر عمر بن سعد. فمنهم من يقول اسقوه فإنّه رضيعٌ لاذنب له، ومنه من يقول لاتسقوه حتى يموت فلايبقى من أهل هذا البيت أحد..!!

والتفت عمر بن سعد إلى حرملة بن كاهلة، وكان حاذقاً في الرماية، وقال له:

- إقطع نزاع القوم..!

فما كان من حرملة إلا أن رمى الطفل بسهم، فأصابه في نحره وذبحه..! وكان الطفل شبيهاً بجده رسول الله.

فضم الحسين (عليه السّلام) ابنه الرضيع عبدالله إلى صدره، وتلقى دم طفله المذبوح بكفه ورمى به نحو السماء، فلم تسقط منه قطرة..!

فقال الحسين (عليه السّلام):

ـ هَوَّنَ ما نزل بي أنّه بعين اللّه تعالى..! اللهم لايكون أهون عليك من فصيل..! إلهي إن كنتَ حبستَ عنّا النصر فاجعله لما هو خيرٌ منه وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حَلَّ بنا في العاجل ذخيرةً لنا في الآجل. اللهمَّ أنت الشاهد على قومٍ قتلوا أشبه الناس برسولك محمدٍ (صلّى اللّه عليه وآله وسلّم)..!

فسمع الحسين (عليه السّلام) هاتفاً يقول:

ـ دعه ياحسين، فإنّ له مرضعاً في الجنة..!

فنزل (عليه السّلام) عن فرسه وصلى عليه وحفر له بجفن سيفه، ودفنه مرمَّلاً بدمائه.

ثم امتطى (عليه السّلام) فرسه، وتقدَّمَ نحو القوم مُصلتاً سيفه، مستميتاً في القتال.

ودعا الناس إلى البراز.

فهابوه ولم يخرج إليه أحد.

فما زال يدعوهم حتى خرج إليه بعضهم. فقتل كل مَن برز منهم وكانوا جمعاً كثيرا.

فارتعدت فرائصُ القوم خوفاً، ولم يعد يخرج إليه أحد.

فدعاهم إلى البراز.

فعاصوا في مواضعهم وصمتوا..!

فاستلّ (عليه السّلام) سيفه وحمل على الميمنة وهو يقول:

الموت أولى من ركوبِ العارِ

والعارُ أولى من دخول النارِ..!

فقتل منهم عدداً كبيراً، وفرُّوا أمامه لايلوون على أحدٍ ناجين بأنفسهم.

ثم تركهم وحمل على الميسرة وهو يرتجز:

أنا الحسين بن علي * آليتُ ألاّ أنثني

أحمي عيالاتِ أبي * أمضي على دين النبي

فلما رآه عمر بن سعد يقاتل في جرأة وهو رابط الجأش ماضي الجَنان، والعسكر ينكشفون أمامه، فانه صاح في القوم:

- ويلكم..! هذا ابن الأنزع البطين..! هذا ابن قَتّالِ العرب..! إحملوا عليه من كل جانب..!!

فانهالت السهام عليه من كل ناحية، ووضعوا الفرسان في ظهور الرجالة، وظل الرُّماة يرشقونه حتى جعلوا درعه كالقنفذ من كثرة ما علق به من سهام.

ثم جاء شمر في جماعة من أصحابه، ووقفوا منه موقفا خسيسا تأباه مروءة الرجال، وحالوا بينه وبين رحله الذي فيه نساؤه وعياله..!

فصاح بهم الحسين (عليه السّلام) رافعاً نداء الحرية وقال:

- ياشيعة آل أبي سفيان، إن لم يكن لكم دين وكنتم لاتخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم عرباً كما تزعمون..!!

فناداه شمر ولسانه يقطر نذالة ودناءة:
ـ ماذا تقول يا ابن فاطمة؟!
فقال الحسين (عليه السّلام) محذراً:
ـ أنا الذي أقاتلكم، والنساء ليس عليهن جناح.
فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي مادمت حيّا..!
فأجابه شمر بوضاعته المعهودة:
ـ لك ذلك يا ابن فاطمة..!
ثم صاح في جماعته:
ـ اليكم عن حرم الرجل، واقصدوه بنفسه، فلعمري إنه لكفؤ كريم..!
فقصدوا الحسين (عليه السّلام)، بينما شمر يحرضهم ويشجعهم ويعدهم ويمنيهم.
فأخذ الحسين (عليه السّلام) يحمل عليهم فيفرّقهم ذات اليمين وذات الشمال، ويوغل فيهم بفرسه، ويضربهم بسيفه، فتطيح الرؤوس في الهواء، وتستقر الأجساد هامدة على الأرض.
فلما اشتدّ القتال، اشتدَّ العطش بالحسين (عليه السّلام)، فحمل عليهم من ناحية الفرات.
فاستقبله عمرو بن الحجاج في أربعة آلاف فكشفهم (عليه السّلام) عن الماء، وأقحم الفرس ليشرب.
فنظر إليه الفرس في وفاء.
فقال له (عليه السّلام):

ـ أنت عطشان، وأنا عطشان. فلاأشرب حتى تشرب..!

فكأن الفرس فهم الكلام. لكنه رفع رأسه عن الماء وامتنع عن الشرب قَبلَ الحسين (عليه السّلام).

فلما أحسّ الحسين (عليه السّلام) في فرسه كرم الخيل وأصالة الجياد، فإنّه ربَّتَ على عنقه ومسح على رأسه، ومدَّ يده إلى الماء.

فناداه رجل من شيعة آل أبي سفيان قائلاً:

ـ أتلتذُّ بالماء ياحسين وقد هُتِكَت حرمك؟!

فامتطى فرسَهُ، وأسرع قاصداً حرمه..!!

٥٩

واطمأن الحسين (عليه السّلام) على حرمه وعياله، فوقف يودّعهم الوداع الأخير، ويحثهم على الصبر والشكر، ويقول:

ـ استعدُّوا للبلاء، واعلموا أنَّ اللّه تعالى حاميكم.

وحافظكم وسينجّيكم من شرّ الأعداء ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ويعذّب عدوكم بأنواع العذاب ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة. فلاتشكوا ولاتقولوا بألسنتكم مايُنقِص من قدركم.

ثم أمرهم (عليه السّلام) بلبس الأُزر.

وتاقت نفسه إلى ابنته وحبيبته سكينة التي كان يكنّ لها شعوراً خاصاً لأنها كان يغلب عليها الاستغراق مع اللّه. فرآها قد اعتزلت النساء في

ناحية وجلست تبكي. فأقبل عليها وضمَّها إلى صدره الشريف بحنان الأب الملهوف المفارق، وأخذ يمسح الدموع عن عينيها ويبكي ويقول:

سيطولُ بعدي يا سكينةُ فاعلمي
منك البكاء إذا الحمام دهاني
لا تحرقي قلبي بدمعكِ حسرةً
ما دام منّي الروح في جثماني
فاذا قُتِلتُ فأنت أولى بالذي
تأتينه يا خيرة النسوانِ

وانتهز عمر بن سعد فرصة انشغال الحسين (عليه السّلام) بأهله وعياله، فقال لعسكره:

ـ ويحكم..! اهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحرمه. واللّه إن فرغ لكم لاتمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم..!

فحملوا عليه وأخذوا يرمونه بالسهام حتى تخالفت بين أطناب المخيم ومزقته.

فصرخ النساء في هلع وأسرعن يدخلن الخيمة.

فاستدار الحسين (عليه السّلام) إلى الغوغاء، وشهر سيفه، وحمل عليهم في غَضبةِ الأسد الجسور المدافع عن عرينه وهو يقول:

ـ أعَلى قتلي تجتمعون وتحاثّون؟! أما واللّه لاتقتلون بعدي عبدا من عباد اللّه أسخط عليكم لقتله مني..!

وأخذ (عليه السّلام) يهجم على الخيل ويقاتلُ قتالَ الفارس المغوار حتى

قَتَلَ منهم نحو ألفٍ وتسعمائة سوى الجرحى..! فكان لايلحق منهم أحداً إلا ضربه بسيفه فقتله أو جرحه، وهو يتقى السهام بصدره ونحره ويقول:

ـ يا أمَّة السّوء! بئس ما خَلَفتم محمداً في عترته..!

وأيمُ اللّه إني لأرجو أن يكرمني ربي بالشهادة بهوانكم ثم ينتقم لي منكم من حيث لاتشعرون..!

فصاح به الحصين بن مالك:

ـ وبماذا ينتقم لك منا يا ابن فاطمة؟

فأجابه (عليه السّلام) مُنذراً بالشّر والعذاب الأليم:

ـ يُلقي بأسكم بينكم ويَسفِك دماءكم ثم يَصُبُّ عليكم العذاب صبًّا..!

ثم وقف الحسين (عليه السّلام) ليستريح ويستعيد أنفاسه بعد تلك الحملات الضارية وقد ضعف عن القتال وأخذ يقول:

ـ لاحول ولاقوة إلا باللّه..!

فبينما هو واقف إذ رماه رجلٌ بحجر فأصاب جبهته، وسال الدم غزيراً من الجرح. فأخذ (عليه السّلام) الثوب ليمسح الدم عن وجهه، فأتاه سهم محدَّد مسموم له ثلاث شعب. فوقع السهم في صدره وأصابه إصابة بالغة.

فثبت (عليه السّلام) وقال:

ـ بسم اللّه، وعلى ملة رسول اللّه.

ثم رفع رأسه إلى السماء ودعا اللّه قائلاً:

ـ إلهي.. إنّك تعلمُ أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجه الأرض إبن بنت نبي غيره..!

ثم أخرَجَ السَّهمَ من قفاه فانبعث الدم كالميزاب.

فوضع يده تحت الجرح، فلما امتلأت دماً رمى به نحو السماء وقال:

ـ هَوَّنَ عليَّ ما نزل بي أنه بعين اللّه..!

فلم تسقط قطرة من الدم إلى الأرض..!

ثم وضع يده ثانية، فلمّا امتلأت لطخ بالدم رأسه ووجهه ولحيته وهو يقول:

ـ هكذا أكون حتى ألقى اللّه وجدّي رسول اللّه وأنا مخضبٌ بدمي، وأقول: يارسول اللّه.. قتلني فلان وفلان..!

وأعياه نزف الدم فجلس على الأرض ينوء برقبته.

فعندئذ أقبل إليه مالك بن النسر الكندي، فشتمه وضربه بالسيف على رأسه، وكان عليه برنس فامتلأ دما. فدعا عليه قائلاً:

ـ لا أكلت بيمينك ولا شربت، وحشرك اللّه مع الظالمين.

ثم ألقى البرنس واعتمّ على القلنسوة.

واشتد العطش بالحسين (عليه السّلام)، فطلب من القوم ماءً، فأَبَوا أن يسقوه.

وقال أحدهم:

ـ لاتذوق الماء حتى تَرِدَ الحامية..!

فأجابه (عليه السّلام):

ـ أنا أرِدُ الحامية؟! إنما أرِدُ على جدي رسول اللّه وأسكن معه في داره في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، وأشكو إليه ما ارتكبتم مني وفعلتم بي..!

وقال له آخر:

ـ ألا تنظر إلى الفرات ياحسين كأنه بطون الحيّات! واللّه لاتذوقه أو تموت عطشا..!

فدعا عليه الحسين (عليه السّلام) وقال:

ـ اللهم أمِته عطشا..!

فعطش الرجل، وظلّ يقول:

ـ اسقوني ماءً..!

فيأتون له بالماء فيشرب حتى يخرج من فيه، ثم يقول:

ـ اسقوني.. قتلني العطش..!

فما زال كذلك حتى أماته اللّه عطشا..!

وغضب القوم بأجمعهم، وأحاطوا بالحسين (عليه السّلام)، كأن اللّه نزع من قلوبهم الرحمة، وهو جالس على الأرض لايقوى على النهوض.

فخرج عبداللّه بن الحسن (عليه السّلام)، وكان طفلاً في الحادية عشرة، ونظر إلى عمه وقد أحدق به الأعداء. فأقبل يشتدُّ نحوه. فلحقت به عمته زينب (عليها السّلام) تريد أن تردّه، فامتنع عليها وأفلت منها،

وقال:
ـ واللّه لاأفارق عمي..!!
وانتهى بحر بن كعب حينئذ إلى الحسين (عليه السّلام) وأهوى بالسيف على رأسه.
فصاح الغلام:
ـ يا ابن الخبيثة! أتضرب عمي؟!
واتقى الضربة بيده، فأطنها السيف إلى الجلد، فاذا هي معلّقة..!
فصاح الغلام من الألم:
ـ ياعمّاه..! لقد قطعوا يدي..!
ووقع في حجر عمه، فضمّه الحسين (عليه السّلام) وقال له:
ـ يا ابن أخي، اصبر على ما نزل بك، واحتسب في ذلك الخير، فإنّ اللّه تعالى يلحقك بآبائك الصالحين.
ورفع (عليه السّلام) يديه إلى السماء وقال:
ـ اللهم إن متعتهم إلى حين، ففرّقهم تفريقا ومزّقهم تمزيقا..!
فرمى حرملة بن كاهل الغلام بسهم فذبحه من الوريد إلى الوريد وهو في حجر عمه..!
ثم أقبل شمر بن ذي الجوشن في جماعة، واقتربوا من الحسين (عليه السّلام) وهو ينوء ويكبو، فضربه زرعة بن شريك على كتفه الأيسر، وضربه آخر على عاتقه، وطعنه سنان بن أنس في ترقوته ثم في بواني صدره، ثم رماه بسهم في نحره، وطعنه صالح بن وهب في جنبه.

ثم تركوه (عليه السّلام) وانفضّوا من حوله.

واشتد الحال به (عليه السّلام)، فأخذ يجود بنفسه، ورفع طرفه إلى السماء، وأقبل على العزيز المتعالي يناجيه قائلا:

ـ اللهم أنت متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما تشاء، قريب ا لرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريبٌ إذا دُعيت، محيطٌ بما خلقت، قابلُ التوبة لمن تاب إليك، قادرٌ على ما أردت، تدركُ ما طلبت، شكورٌ إذا شُكِرت، ذكورٌ إذا ذُكرت، أدعوكَ محتاجاً وأرغبُ إليك فقيراً، وأفزعُ إليك خائفاً، وأبكي مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكل عليك كافياً. اللهم احكم بيننا وبين قومنا، فانهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا، وقتلونا ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على الوحي، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين.

صبراً على قضائك يارب، لا إله سواك ياغياث المستغيثين، مالي ربٌّ سواك ولامعبود غيرك، صبراً على حكمك ياغياث من لاغياث له، ياداثماً لانفاد له، يامحيي الموتى، ياقائماً على كل نفس بما كسبت، احكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين..!

وأقبَلَ فرسُ الحسين (عليه السّلام) يدور حوله ويلطّخُ ناصيته بدمه. فصاح ابن سعد:

ـ دونكم الفرس فإنّه من جياد خيل رسول اللّه..!

فأحاط به القوم. فجعل الجواد يرمح برجليه حتى قتل أربعين راجلاً وعشرة فرسان..!!

فقال ابن سعد:

ـ دعوه لننظر ما يصنع..!

فلما أمن الفرس أقبل نحو الحسين (عليه السّلام) يمرغ ناصيته بدمه مرة أخرى ويشمّه ويصهل صهيلاً عالياً، معلناً ظليمة أهل البيت.

ثم ترك الحسين (عليه السّلام) مغشياً عليه، وركض نحو المخيم وصهيله لا ينقطع.

فلما نظر النسوة إلى الجواد مخزيًا، والسرج عليه ملويًا، خرجن من الخدور ناشرات الشعور، على الخدود لاطمات وللوجوه سافرات وبالعويل داعيات، وبعد العز مذللات، وإلى مصرع الحسين مبادرات.

وخرجت زينب (عليها السّلام) من الفسطاط، وأخذت تصيح:

ـ وامحمداه، واعلياه، واجعفراه، واحمزتاه، واأخاه، واسيداه، واأهل بيتاه..! هذا الحسين بالعراء، صريع بكربلاء.. ليت السماء أطبقت على الأرض، وليت الجبال تدكدكت على السهل، اليوم مات جدي، اليوم ماتت أمي..!

ثم أسرعت نحو الحسين (عليه السّلام) مهرولة وهي تجلس مرة وتقوم أخرى. فلما انتهت إليه طرحت نفسها عليه وأخذت تناجيه وهو مازال يجود بنفسه فلا يردُّ عليها.

فنظرت حولها فرأت عمر بن سعد وقد دنا من جماعة من أصحابه،

فصاحت به:

ـ أيُقتل الحسين وأنت تنظر إليه ياعمر؟!

فصرف ابن سعد وجهه عنها، وابتعد.

فنادت زينب (عليها السّلام):

ـ أما فيكم مسلم..؟! ويحكم! أما فيكم مسلم؟!

فلم يجبها أحد.

فجلست خلف أخيها، وأقامته، وضمته إليها، وظلَّت تبكي وتنتحب، وتناشده أن يكلمها.

ففتح الحسين (عليه السّلام) عينيه، وهمس لها:

ـ أُخيَّه..! لقد كسرت قلبي، وزدتيني كرباً على كربي، فباللّه عليك إلا ما سكنتِ وصبرت!

فبكت (عليها السّلام) وقالت له:

ـ واويلاه، يا أبا عبداللّه، كيف أسكن وأنت تعالج سكرات الموت، فدتك روحي ونفسي..!!

ووجد الحسين (عليه السّلام) أنّها لاتكفُّ ولاتقوم، فأمرها بالرجوع إلى الفسطاط حتى لاترى ماسيحل به فتشتدُّ لوعتها ويزداد كربها.

فأطاعته، وودعته وداع الشقيق الشفيق، ثم عادت.

فأقبل عمر بن سعد واقترب من الحسين (عليه السّلام)، ثم التفت إلى مَن حوله وقال لهم:

ـ ما تنتظرون بالرجل؟! انزلوا إليه وأريحوه..!

فدنا منه خولي بن يزيد ليحتز رأسه، فضعف وأرعد، ورمى السيف وَوَلّى هاربا..!

فنهره شمر قائلاً:

ـ فتّ اللّه في عضدك..! مالك ترعد؟!

ثم نزل، وجلس على صدر الحسين (عليه السّلام)، وقبض على لحيته المقدسة، وضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربة، واحتزّ رأسه الشريف..!

فتكاملت أبشع جريمة في أطول يوم في التاريخ..!!

واكفهرّ الكون..!

واهتزت السماء، وزُلزِلَت الأرض..!

وحلّ غضب الجبار..!

وحقّت لعنته على القوم الظالمين..!!

٦٠

ودوّى البكاء والعويل في معسكر الحسين (عليه السّلام)، وفاضت دموع الثكالى والأرامل والأطفال وسالت على رمال كربلاء الملتهبة حتى اختلطت الدموع بالدماء، وضاق ما بين الأرض والسماء، بينما أخذ أصحاب ابن سعد يتصايحون:

ـ قتلنا الحسين..! قتلنا الحسين..!!

وحدثت ضجَّة شديدة..! ووقع هرج ومرج..!

وأقبل القوم على سلب الحسين (عليه السّلام).

فأخذ إسحاق بن حويّة قميصه ، وأخذ الأخنس بن علقمة عمامته، وأخذ الأسود بن خالد نعليه ، وأخذ الأسود بن حنظلة سيفه.

وجاء رجل يُدعى بجدل بن سليم الكلبي، فرأى الخاتم في إصبع الحسين (عليه السّلام) فقطع إصبعه وأخذ الخاتم. وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته، وأخذ جعونة بن حويّة الحضرمي ثوبه، وأخذ مالك بن النسر برنسه، وأخذ الرجيل بن خيثمة الجعفي قوسه، وأخذ درعَه البتراء عمرُ بن سعد..!

ثم مال الناس على الخيام، واندفعوا ينهبون الورس والحلل والإبل وينزعون الأثواب عن النساء.

فكانت المرأة تُنازَع ثوبها عن ظهرها فتُغلب عليه ويُذهب به منها، حتى أن رجلا نزع قرطين من أذنى أم كلثوم (عليها السّلام) ثم خرم أذنيها..!

ونزع آخر خلخال فاطمة بنت الحسين (عليهما السّلام) من رجليها وهو يبكي..!

فسألته متعجبة:

ـ مالك؟! تبكي..!

فأجاب:

ـ كيف لاأبكي وأنا أسلب ابنة رسول اللّه؟!

فقالت له:

-إذن فدعني..!

فاستبدّ به الحرص والطمع وقال:

-أخاف أن يأخذه غيري..!

فما زالوا يقتحمون الخيام وينهبون مافيها، حتى عثروا على زين العابدين علي بن الحسين (عليهما السّلام) وهو مريض على فراشه. فجرد شمر بن ذي الجوشن سيفه يريد قتله. فهرولت عمته زينب (عليها السّلام)، وألقت بنفسها عليه وقالت:

-والله لايُقتل حتى أُقتَل..!

فكف عنه شمر، ثم استدار إلى أصحابه فأمرهم باحراق الخيام.

فأخرجوا النساء والأطفال منها وأشعلوا فيها النار..!

فلما اندلعت ألسنة النيران والدخان من الأبنية والخيام وعمّ الهول والذهول معسكر الحسين (عليه السّلام)، جاء عمر بن سعد ونادى في أصحابه:

-من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه..؟!

فبرز جماعة من الخيالة.

فاختار منهم إبن سعد عشرة فرسان.

فأقبلوا فداسوا الحسين (عليه السّلام) بحوافر خيولهم حتى رضّوا صدره وظهره، وتركوه مجدّلا في العراء وبه ثلاث وثلاثون طعنة

وأربع وثلاثون ضربة..!

عندئذ ضجت الملائكة بالبكاء في السماء، وارتفعت غبرة شديدة سوداء مظلمة فيها ريحٌ حمراء لايُرى فيها عينٌ ولاأثر، وأظلمت الدنيا، وظهرت الكواكب والنجوم في النهار، وانكسفت الشمس، وأمطرت السماء دما..!

فارتعب الناس وخافوا، ودخلوا خيامهم، وظنوا أنّ العذاب قد نزل بهم.

فلما كان اليوم التالي، وقد اشتد غضب اللّه وتغيرت معالم الطبيعة، نادى عمر بن سعد في الناس بالرحيل عند زوال الشمس التي لم يفارقها الكسوف.

فركب الناس.

وساقوا أمامهم النساء والصبيان من أهل البيت النبوي الشريف كما تُساق السبايا.

ثم ساروا خلفهم وقد رفعوا الرؤوس على أسِنّة الرماح، وبينها رأس الحسين (عليه السّلام)، مخلِّفين وراءهم أجساد القتلى مبعثرة بالعراء، وتوجّهوا نحو الكوفة..!

وكانت الملائكة مازالت تضج إلى اللّه (عزّوجلّ) بالبكاء في السماء، وتقول:

- يارب.. هذا الحسين صفيك وابن بنت نبيك..!

فأقام اللّه سبحانه وتعالى ظِلّ القائم المهدي (عليه السّلام)، وقال للملائكة:

ـ بهذا أنتقم لهذا..!!

* * *

مراجع الرواية

١ـ نفس المهموم: للشيخ عباس القمي.

٢ـ مقتل الحسين (عليه السّلام): للسيد عبدالرزاق الموسوي المقرم.

٣ـ تاريخ الأمم والملوك: للطبري.

٤ـ الكامل في التاريخ: لابن الأثير.

٥ـ لواعج الأشجان: للسيد محسن الحسيني العاملي.

٦ـ مقاتل الطالبيين: لأبي الفرج الاصفهاني.

٦ـ تذكرة الخواص لابن الجوزي.

٧ـ مقتل الحسين (عليه السّلام): للخوارزمي.

٩ـ المناقب: لابن شهرآشوب.

١٠ـ اللهوف في قتلى الطفوف: للسيد ابن طاووس.

١١ـ أعيان الشيعة: للسيد محسن الأمين.

١٢ـ المجالس الفاخرة: للسيد عبدالحسين شرف الدين.

١٣ـ مثير الأحزان: لابن نما الحلّي.

١٤ـ الارشاد: للشيخ المفيد.

١٥ـ مقتل الحسين (عليه السّلام): للسيد محسن الأمين.

١٦ـ مقتل العوالم: للبحراني.

١٧ـ بحار الأنوار: للمجلسي.

١٨ـ إثبات الوصية: للمسعودي.

١٩ـ ميثم التمار: للشيخ محمد حسين المظفر.

* * *